ذم الكسل

تأليف
محمد شومان الرملي

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد، فهذه ورقات لطيفة في «ذم الكسل والحث على النشاط في العلم والعمل»، افتتحتها بأحسن الكلام من كتاب الله عز وجل، وخير الهدي من حديث رسوله ﷺ.

ثم أتبعت ذلك بما تيسر لي من كلام العلماء والحكماء والشعراء والأدباء، من كلمة طيبة، وموعظة حسنة، وحكمة بالغة، في نثر بليغ، ونظم بديع، وأسلوب سهل جذّاب.

كل ذلك في الحث على النشاط والجد والاجتهاد، في عبادة الله عز وجل وأداء حقوقه، والإحسان إلى الخلق وأداء حقوقهم، والقيام بالأعمال الدينية والدنيوية، دون توان ولا كسل، ولا كلال ولا ملل.

في المسجد والمدرسة والحقل والجامعة والمصنع والمعسكر والمشفى، في البيت وخارجه، وفي سائر الأماكن والأحوال والأوقات.

فجاء الكتاب ـ والحمد لله وحده ـ معينًا للتلميذ والمعلم، والموظف

والمسؤول، والجندي والقائد، والحاكم والمحكوم، وسائر أصناف الناس، يحثهم كلَّهم بحِكَمه البالغة، ويخاطبهم بحججه الدامغة، داعيًا إياهم إلى ترك التواني والكسل، والسعي في الأمور بالجد والعمل، ومزاولة الأعمال بكل ثقة وأمل، رغبة في نيل المطالب العالية، والظفر بالحوائج الغالية، تحقيقًا للفوز والنجاح، والرفعة والفلاح، في مصالح الدنيا والدين، ومنافع الأولى والآخرة.

سائلًا الله عز وجل أن ينفع به كل من نظر فيه، وأن يجعله كافيًا فيما وُضِع له، من طرد الكسل وشحذ الهمم.

والتوفيق بالله تعالى وحده، كما قال سبحانه على لسان نبيِّه شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

وكتب

محمد شومان

١٤٢٢هـ

الباب الأول

في ما جاء في الكتاب والسنة
من ذم الكسل والكسالى
وما يتعلق بذلك من أحكام وفوائد

فصل
في ذكر الكسل في القرآن الكريم
وما جاء في وصف المنافقين

لم يأت ذكر الكسل في القرآن الكريم بأحرفه إلا في ذم المنافقين ـ أعاذنا الله تعالى من أفعالهم وعصمنا من التشبه بهم، وذلك في وصف قيامهم إلى الصلاة، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٤].

قال ابن سعدي: «﴿**وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله**﴾، والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾؛ أي: متثاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم.

﴿**ولا ينفقون إلا وهم كارهون**﴾، من غير انشراح صدر وثبات نفس،

ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشرح الصدر ثابت القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين».

وقال ابن القيم وهو يذكر صفات المنافقين[1]: «لهم علامات يعرفون بها، بينة في السنة والقرآن، بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان، قام بهم والله الرياء، وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أُمروا به من أوامر الرحمن، فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلًا، ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾».

موعظة

«يا غافل القلب في صلاته، يا شتيت الهم في جهاته، يا مشغولًا بآفاته عن ذكر وفاته، يا قليل الزاد مع قرب وفاته.

يا من يرحل عن الدنيا في كل لحظة مرحلة، وكتابه قد حوى حتى مقدار خردلة، وما ينتفع بنذيرٍ والنُّذُر متصلة، وما يرعوي لنصيحٍ وكم قد عذَله، ودروعه متخرقة والسهام مرسلة، ونور الهدى قد يُرى وما رآه ولا تأمَّله، وهو يأمل البقاء وقد رأى مصيرَ مَنْ أَمَّلَه، وأَجَلُه قد دنا ولكنّ أملَه قد شغله، وقد انعكف على العيب بعد الشيب بصبابة ووَلَه، ويُحْضِر بدنَه في الصلاة فأما القلب فقد أهمله، كُنْ كيف شئتَ فبين يديك الحساب والزلزلة، ونَعِّم جسدك

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٥١).

فلا بد للدود أن يأكله، يا عجبا من فتور مؤمنٍ بالجزاء والمسألة! أيقينٌ بالنجاة أم غرورٌ وبَلَه؟! بادر ما بقي من العمر واستدرك أوّله، فبقية عمر المؤمن لا قيمة له»[1].

فصل

ونهى الله تعالى كليمه موسى وأخاه هارون عليهما الصلاة والسلام لما أرسلهما إلى فرعون أن يتكاسلا أو يفترا عن ذكره تعالى، فقال عز وجل:

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [طه: ٤٢].

الونا: الفترة في الأعمال والأمور. والتواني والونا: ضعف البدن.

وعن الجوهري: الونا: الضعف والفتور والكلال والإعياء.

وتوانى في حاجته: قَصَّر. وفي حديث عائشة تَصِفُ أباها رضي الله عنهما: سَبَقَ إذْ وَنَيْتم؛ أي: قَصَّرْتم وفَتَرْتم.

والفترة: الانكسار والضعف.

والكسل: التثاقل عما لا ينبغي أن يتثاقل عنه.

وفي المحكم: الكسل: التثاقل عن الشيء والفتور فيه[2].

قال ابن سعدي في تفسير الآية: «﴿ولا تنيا في ذكري﴾؛ أي: لا تفترا ولا

---

(١) «التبصرة» (١/ ٣٧٨).

(٢) انظر «اللسان» (وني. فتر. كسل).

تكسلا عن مداومة ذكري، بالاستمرار عليه، والزماه كما وعدتما بذلك: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۞ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾[1]، فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور، يسهلها ويخفف حملها».

فصل

وقد أمر الله عز وجل كليمه موسى عليه الصلاة والسلام أن يأخذ ما في الألواح بالقوة المضادة للضعف والعجز، المنافية للكسل والفتور، فقال سبحانه:

﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وكذلك أمر سبحانه بني إسرائيل أن يأخذوا ما آتاهم بقوة، فقال جل وعلا:

﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْ ﴾[البقرة: ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ

---

(١) والآيات في ذلك هي: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي ۞ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۞ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۞ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۞ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾ [طه: ٢٩ - ٣٥].

﴿ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وأمر سبحانه نبيَّه يحيى عليه الصلاة والسلام كذلك، أن يأخذ الكتاب بقوة، ، فقال سبحانه:

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢].

وهكذا دين الله عز وجل: يجب أن يؤخذ بالجد والنشاط والمثابرة دون العجز والكسل، فمن كان من أهله كذلك كان له العلو والرفعة في الدنيا والآخرة، وإلا كان في المؤخرة والذيل، وتسلط عليه عدوه، وسامه سوء العذاب.

فصل
في استعاذة النبي ﷺ من الكسل

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول (وفي رواية: كان لرسول الله ﷺ دَعَوَاتٌ لا يَدَعُهُنَّ):

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ»(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْمَغْرَمِ وَالْمَأْثَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٣) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٧٠٦)، وغيرهما. والرواية الثانية عند النسائي (٥٤٤٩ و٥٤٥٠)، وسيأتي لفظه.

النَّارِ»(١).

وعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يدعو بهذه الدعوات:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْجُبْنِ وَالْعَجْزِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْـمَحْيَا وَالْـمَمَاتِ»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان يقول:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْـمَأْثَمِ وَالْـمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْـمَسِيحِ الدَّجَّالِ.

اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْـمَشْرِقِ وَالْـمَغْرِبِ»(٣).

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول، كان يقول:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ،

---

(١) أخرجه النسائي (٥٤٩٠) وغيره، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه النسائي (٥٤٨٩) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٦٨) وفي مواضع أخرى، واللفظ له، ومسلم (٥٨٩- كتاب الذكر والدعاء- باب ١٤)، وغيرهما.

وَعَذَابِ الْقَبْرِ.

اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»[1].

فصل
في إكثار النبي ﷺ
من الاستعاذة بالله تعالى من الكسل

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال لأبي طلحة:

«الْتَمِسْ غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى خَيْبَرَ»، فخرج بي أبو طلحة مُرْدِفِي وأنا غلام راهقت الحُلُمَ، فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل، فكنت أسمعه كثيرًا يقول:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ».

ثم قدمنا خيبر، فلما فتح الله عليه الحصن، ذكر له جمال صفية بنت حُيي ابن أخطب، وقد قُتِلَ زوجها، وكانت عروسًا، فاصطفاها رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) وغيره.

لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا سد الصهباء حلت، فبنى بها، ثم صنع حَيْسًا في نِطَعٍ[1] صغير، ثم قال رسول الله ﷺ:

«آذِنْ مَنْ حَوْلَكَ». فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ على صفية.

ثم خرجنا إلى المدينة، قال: فرأيت رسول الله ﷺ يُحَوِّي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، فسرنا حتى إذا أشرفنا على المدينة نظر إلى أُحد، فقال:

«هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ». ثم نظر إلى المدينة فقال:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا بِمِثْلِ مَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ وَصَاعِهِمْ»[2].

قال ابن القيم[3]: «فاستعاذ من ثمانية أشياء، كل شيئين منها قرينان، فالهم والحَزَن قرينان، والفرق بينهما: أن المكروه الوارد على القلب إما أن يكون على ما مضى أو لما يُستقبل، فالأول هو الحزن، والثاني الهم.

وإن شئت قلت: الحزن على المكروه الذي فات ولا يتوقع دفعه، والهم على المكروه المنتظر الذي يتوقع دفعه وتأمله.

والعجز والكسل قرينان: فإنّ تخلُّفَ مصلحة العبد وكماله ولذته وسروره عنه إما أن يكون مصدره عدم القدرة فهو العجز، أو يكون قادرًا عليه

---

(١) النِّطَع: وعاء من جلد.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٣) وفي مواضع أخرى، واللفظ له، ومسلم (١٣٦٥)، وغيرهما.

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١١٣-١١٤).

لكن تخلَّف لعدم إرادته فهو الكسل، وصاحبه يلام عليه ما لا يلام على العجز.

وقد يكون العجز ثمرة الكسل، فيلام عليه أيضًا، فكثيرًا ما يكسل المرء عن الشيء الذي هو قادر عليه، وتضعف عنه إرادته، فيفضي به إلى العجز عنه.

وهذا هو العجز الذي يلوم اللَّـهُ عليه في قول النبي ﷺ:

«إِنَّ اللَّـهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ»(١).

وإلا فالعجز الذي لم تُخْلَقْ له قدرةٌ على دفعه ولا يدخلُ معجوزُه تحت القدرة لا يلام عليه.

قال بعض الحكماء في وصيته: إياك والكسل والضجر، فإن الكسل لا ينهض لمكرمة، والضجر إذا نهض إليها لا يصبر عليها.

والضجر متولد عن الكسل والعجز، فلم يفرده في الحديث بلفظ.

ثم ذكر الجبن والبخل، فإن الإحسان المتوقَّع من العبد، إما بماله وإما ببدنه، فالبخيل مانع لنفع ماله، والجبان مانع لنفع بدنه.

والمشهور عند الناس أن البخل مستلزم الجبن من غير عكس، لأن من بخل بماله فهو بنفسه أبخل، والشجاعة تستلزم الكرم من غير عكس، لأن من جاد بنفسه فهو بماله أسمح وأجود، وهذا الذي قالوه ليس بلازم أكثره، فإن الشجاعة والكرم وأضدادها أخلاق وغرائز قد تُجمع في الرجل، وقد يُعطى

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٢٧) وغيره، وضعفه الألباني، ولفظه: عن عوف بن مالك، أنه حدثهم أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال الـمَقْضِيُّ عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّـهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّـهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

بعضها دون بعض، وقد شاهد الناس من أهل الإقدام والشجاعة والبأس مَنْ هو أبخل الناس، وهذا كثيرًا ما يوجد في أمة الترك، يكون أشجع من ليث وأبخل من كلب.

فالرجل قد يسمح بنفسه ويضِنّ بماله، ولهذا يقاتل عليه حتى يقتل، فيبدأ بنفسه دونه، فمن الناس من يسمح بنفسه وماله، ومنهم من يبخل بنفسه، ومنهم من يسمح بماله ويبخل بنفسه، وعكسه.

والأقسام الأربعة موجودة في الناس.

ثم ذكر ضَلَعَ الدَّين[١] وغلبة الرجال، فإن القهر الذي ينال العبد نوعان:

أحدهما: قهر بحق، وهو ضَلَعَ الدَّين.

والثاني: قهر بباطل، وهو غلبة الرجال.

فصلوات الله وسلامه على مَنْ أُوتِيَ جوامع الكلم، واقتُبست كنوزُ العلم والحكمة من ألفاظه».

وقال في موضع آخر[٢]: «والعجز والكسل قرينان، وهما من أسباب الألم، لأنهما يستلزمان فوات المحبوب، فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل.

والجبن والبخل قرينان، لأنهما عدم النفع بالمال والبدن، وهما من أسباب

---

(١) ضَلَع الدَّين: غلبته وثقله وشدته.

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٧).

الألم، لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة، والبخل يحول بينه دونها أيضًا، فهذان الخُلُقان من أعظم أسباب الآلام.

و ضَلَع الدَّين وقهر الرجال قرينان، وهما مؤلمان للنفس معذبان لها، أحدهما: قهر بحق، وهو ضَلَع الدَّين، والثاني: قهر بباطل، وهو غلبة الرجال.

وأيضًا فضَلَع الدَّين قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره».

وقال في موضع ثالث[1]: «فجمع الحديث الشريف في استعاذته ﷺ أصولَ الشر وفروعه، ومباديه وغاياته، وموارده ومصادره».

فصل
في استعاذة النبي ﷺ
من الكسل في الصباح والمساء

عن عبد الله رضي الله عنه قال: كان نبي الله ﷺ إذا أمسى قال:

«أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْـمُلْكُ لِلَّـهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّـهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ».

قال: أُراه قال فيهن: «لَهُ الْـمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٣٥٨)

«رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا.

رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ».

وإذا أصبح قال ذلك أيضًا: «أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْـمُلْكُ لِلَّـهِ»(١).

فصل

في أن النبي ﷺ كان لا يدع الاستعاذة من الكسل

عن أنس رضي الله عنه قال: كان لرسول الله ﷺ دعواتٌ لا يَدَعُهُنَّ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَالدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٣) وغيره. وله رواية لم يذكر فيها لفظ: «أراه قال»، وإنما ذكر الحديث على الجزم، لكن ليس في آخره جملة: «وإذا أصبح». والحديث كله مرفوع عند أبي داود (٥٠٧١)، وليس فيه لفظ: «وَالْحَمْدُ لِلَّـهِ».

(٢) أخرجه النسائي بهذا اللفظ (٨/ ٢٥٧)، وهو في «الصحيحين»، وغيرهما، وقد تقدم، وتقدمت الإشارة إلى هذه الرواية.

فصل

في حث أبي بكرة رضي الله عنه ولده على لزوم الاستعاذة من الكسل

عن مسلم بن أبي بكرة قال: سمعني أبي وأنا أقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْكَسَلِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ». قال: يا بني، ممن سمعت هذا؟ قلت: سمعتك تقولهن. قال: الزمهن، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقولهن[1].

فصل

في ما ذُكر من نفي العجز والكسل عن النبي ﷺ

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه: كان يمشي مَشْيًا يُعْرَفُ فيه أنه ليس بعاجزٍ ولا كسلانَ[2].

وكان علي رضي الله عنه إذا وَصَفَ رسولَ الله ﷺ قال: كان إذا مشى تَقَلَّعَ[3]، كأنما يَنْحَطُّ[4] في صَبَبٍ[5][6].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٣) وغيره، وصحح إسناده الألباني.

(٢) «السلسلة الصحيحة» (٢١٤٠).

(٣) أي: مشى بقوة ودفع كامل، لأن التقلع رفع الرجل من الأرض بهمّة وقوة لا مع اختيال وتقارب خطا، لأن تلك مشية النساء ومن تشبه بهن. «جمع الوسائل».

(٤) أي: ينزل.

(٥) أي: منحدَر من الأرض.

(٦) أخرجه الترمذي في «الشمائل» (١/ ١١٦- جمع الوسائل)، وحسنه الألباني تحت الحديث (٢٠٨٣) من «الصحيحة».

فصل

في طلب النبي ﷺ البيعة من أصحابه على السمع والطاعة في النشاط والكسل

عن جابر رضي الله عنه قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ الناس في منازلهم؛ بعُكَاظٍ وَمَجَنَّةَ وفي المواسم بمِنًى، يقول:

«مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ».

حتى إن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مُضَرَ، فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش، لا يفتنُك، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يُظهِرون الإسلام.

ثم ائتمروا جميعًا، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلًا حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شِعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا، فقلنا: يا رسول الله: نبايعك. قال:

«تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْـمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْـمُنْكَرِ، وَأَنْ تَقُولُوا فِي اللَّـهِ لَا تَخَافُونَ فِي اللَّـهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي، فَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا

تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمْ الْجَنَّةُ».

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زُرارة وهو من أصغرهم فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وإن إخراجَه اليومَ مُفارقةُ العرب كافة، وَقَتْلُ خِيارِكم، وأن تَعَضَّكُمْ السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جَبِينَةً فبَيِّنُوا ذلك، فهو عذر لكم عند الله.

قالوا: أَمِطْ عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا، ولا نَسْلُبُهَا أبدًا.

قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأَخَذَ علينا وشَرَطَ ويُعطينا على ذلك الجنة(١).

فصل
في ذكر أشياء
لا ينبغي للمرء أن يعجز عنها

قراءة ﴿قل هو الله أحد﴾ كل ليلة:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأصحابه:

«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟». فشَقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أَيُّنا يُطِيقُ ذلك يا رسول الله؟ فقال:

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٠٤٧ و١٤٢٤٣)، وابن حبان (١٦٨٦- موارد)، وغيرهما، وهو في «الصحيحة» برقم (٦٣).

«اللَّـهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ»(1).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟» قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال:

«﴿**قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ**﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»(2).

التسبيح مئة مرة:

وعن مصعب بن سعد، حدثني أبي قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال:

«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟» فسأله سائل من جلسائه: كيف يَكْسِب أحدُنا ألف حسنة؟ قال:

«يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ»(3).

صلاة النافلة في غير موضع الفريضة:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ أَوْ عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ فِي الصَّلَاةِ؟» يعني: في السُّبْحَةِ(4).

---

(1) أخرجه البخاري (٥٠١٥) وفي مواضع أخرى، وغيره.

(2) أخرجه مسلم (٨١١) وغيره.

(3) أخرجه مسلم (٢٦٩٨) وغيره.

(4) أخرجه أبو داود (١٠٠٦) وغيره، وصححه الألباني.

التماس ليلة القدر في السبع البواقي من رمضان:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ - يعني: ليلةَ القدر، فَإِنْ ضَعُفَ أَحَدُكُمْ أَوْ عَجَزَ فَلَا يُغْلَبَنَّ عَلَى السَّبْعِ الْبَوَاقِي»[١].

فصل
في المحافظة على صلاة الليل
حال المرض وحال الكسل ولو صلى قاعداً

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله ﷺ كان لا يَدَعُهُ، وكان إذا مَرِضَ أو كَسِلَ صَلَّى قَاعِدًا[٢].

وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل مَمْدُودٌ بين ساريتين، فقال: «مَا هَذَا؟» قالوا: لزينب تصلي، فإذا كَسِلَتْ أو فَتَرَتْ أَمْسَكَتْ به، فقال:

«[لَا]، حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا كَسِلَ أَوْ فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٥ و٦٩٩١)، ومسلم (١١٦٥)، واللفظ له، وغيرهما.

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (١١٥٠)، والزيادة له، ومسلم (٧٨٤)، وغيرهما.

فصل
في أن من نام عن الصلاة
أصبح خبيث النفس كسلان لم يصب خيرًا

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ مَكَانَ كُلِّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»(1).

(وفي لفظ): «فَيُصْبِحُ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ قَدْ أَصَابَ خَيْرًا، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ أَصْبَحَ كَسِلًا خَبِيثَ النَّفْسِ لَمْ يُصِبْ خَيْرًا».

فصل
في أن من نام حتى أصبح ولم يقم إلى الصلاة
فقد بال الشيطان في أذنه

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ذُكِرَ عند النبي ﷺ رجلٌ فقيل: ما زال نائمًا حتى أصبح، ما قام إلى الصلاة، فقال:

(1) أخرجه البخاري (١١٤٢ و٣٢٦٩)، ومسلم (٧٧٦)، وأبو داود (١٣٠٦)، واللفظ له، والنسائي (٣/ ٢٠٣-٢٠٤)، وابن ماجه (١٣٢٩) باللفظ الثاني، وغيرهم.

«[ذَاكَ رَجُلٌ] بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «حسب الرجل من الخيبة والشر أن ينام حتى يصبح وقد بال الشيطان في أذنه»[2].

(فائدة): قال الطِّيبي[3]: «خَصَّ الأُذُنَ بالذكر وإن كانت العينُ أنسب بالنوم إشارة إلى ثقل النوم، فإن المسامع هي موارد الانتباه، وخصَّ البولَ لأنه أسهلُ مدخلًا في التجاويف وأسرع نفوذًا في العروق، فيُورِث الكسل في جميع الأعضاء».

فصل
في مواعظ بليغة وحكم باهرة
في الحث على قيام الليل وذم الكسل عنه

أيها المقصر عن طلب الزاد، كيف تدرك المعالي بغير اجتهاد؟! أين أهل السهر من أهل الرقاد؟ أين الراغبون في الهوى من الزهاد؟ رحل المتيقظون مستظهرين بكثرة الزاد، كلّ جوادٍ لهم يعرف الجواد، فساروا فزاروا والكسلان عاد[4].

يا هذا، كيف تطيق السهر مع الشِّبع؟! كيف تزاحم أهل العزائم

(١) أخرجه البخاري (١١٤٤ و٣٢٧٠)، ومسلم (٧٧٤)، وغيرهما.

(٢) قال ابن حجر: «موقوف صحيح الإسناد». «الفتح» (٣/ ٢٩).

(٣) نقلًا عن «فتح الباري» (٣/ ٢٩).

(٤) «المدهش» (ص ٤٣٠).

بمناكب الكسل؟![1].

يا نائمًا طول الليل، أما تحسّ بَرْدَ السَّحَر؟! لقد نَمَّ النسيمُ على الزهر، ودلت أغاريد الحَمام على دنو الفجر، صاح الديك فلم تنتبه، وأعاد فلم تُفِقْ، فقَوِيَ ضربُ الجناحين لَطْمًا على غفلتك.

صَفَّقَ إما ارتياحه لسنا الفجر وإما على الدجى أسفًا

*****

يا مَطُولًا بالقيام مستلذًّا بالمنام
قم فقد فاتك يا مغبون أرباح الكرام
وخَلَوْا دونك بالمو لى وفازوا بالمرام
وكذا يسبقك القو م إلى دار السلام[2]

الجِدَّ الجِدَّ فما تحتمل الطريقُ الفتور، ضاقت أيام الموسم فجعجعوا بالإبل.

كانت عابدة لا تنام من الليل إلا يسيرًا، فعوتبت في ذلك، فقالت: كفى بطول الرقدة في القبور رقادًا.

تزوج رباح القيسي امرأة فرأته نائمًا طول الليل، فقالت: ليت شعري! مَنْ غَرّني بك يا رباح؟!

---

(١) «المدهش» (ص ٤٣٣).

(٢) «المدهش» (ص ١٩٣).

هذه طريقهم، فأين السالك؟ هذه صفاتهم، فأين الطالب؟[1].

ولياسين خليل[2]:

إذا سجى الليلُ قاموه وأعينهم   من خشية الله مثل الجائد[3] الهَطِلِ
هم الرجالُ فلا يُلهيهم لَعِبٌ   عن الصلاةِ ولا أُكْذُوبَةُ الكَسَلِ

سفر الليل لا يطيقه إلا مُضمّر المجاعة، تجتمع جنود الكسل فتتشبث بذيل التواني، فتُزَيِّن حُبَّ النوم، وتزخرف طيب الفِراش، وتُخَوِّف بردَ الماء، فإذا ثارت شعلة من نار الحزم أضاءت بها طريق القصر، فسمعتْ أُذُنُ اليقينِ هاتفَ: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟»[4] [5].

فقرك من الخير مَشُوب بالكسل، ومتى كان الفقيرُ كسلانَ فلا وجه للغنى.

لو كانت لك أنفة من التواني لخرجتَ من رَبْقة الذل.

بعتَ قيام الليل بفضل لقمة، شربت كأس النعاس ففاتتك الرفقة، امتلأت طعامًا فإذا غريم الفراش يتقاضاك بدَيْن النوم، فضُرِبَ على أُذُنك لا

---

(١) «المدهش» (ص ٤٢٩).

(٢) «الرقائق- الراشد» (ص ١٧).

(٣) أي: المطر الغزير، جاد المطر جَوْدًا: وَبَلَ، فهو جائد. والـهَطِل من المطر والدمع: المتتابع.

(٤) يشير إلى ما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّـهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ». هذا اللفظ لمسلم.

(٥) «اللطف في الوعظ» (ص ١٣).

في موافقة أهل الكهف.

تناولتَ خمر الرقاد فوقع بك صاحبُ الشرطة، فعمل في حقك بمقتضى: «نَمْ وقُمْ»، فجعل حدَّك الحَبْسَ عن قيام الليل، فخرج على توقيع قصتك وقت الفجر: ﴿**رضوا بأن يكونوا مع الخوالف**﴾.

والله لو بعت لحظة من خلوةٍ [بالله](1) بتعمير نوحٍ في ملك قارون لغُبِنْتَ(2).

يا مخذولَ التواني، يا مخدوعَ الأماني، غَرِقَ مركبُ عُمُرِك في بحر الكسل.

ويحك! من لازم المنام لم يَرَ إلا الأحلام.

متى تفتح عين عزمك؟! فيا طول هذا الكرى(3)! أما تستنشق ريح السَّحَر؟! أما تجد بردَ هواء الفجر؟! أما تعاين ضوءَ الشمس؟! أما يؤلمك عتابُ الدهر؟!(4).

انتظِر المجتهدين على باب الفجر إذا قدموا من سفر السهر، وصِحْ بقلبك الغافل وعزمك المتكاسل:

عارِضا بي ركبَ الحجاز أُسائلُهُ　　　متى عهدُه بأيام سَلْعِ(5)

(1) يعني: في قيام الليل خاليًا.

(2) «اللطف في الوعظ» (ص ٣١).

(3) الكرى: النوم.

(4) «اللطف في الوعظ» (ص ٧٦).

(5) موضع بقرب المدينة.

قل لهم: طوبى لكم يا مقبولين، هنيئًا لكم يا واصلين[1].

مَـنْ يُـــرِدْ مُلْـكَ الجنـانِ   فليَـــدَعْ عنـــه التـــواني
ولْـــيَقُمْ في ظلمـــة اللَّيــ   ــلِ إلى نـــور القـــرآنِ
وليَصِـــلْ صـــومًا بصـــومٍ   إنّ هـــذا العـــيشَ فـــاني
إنـــما العـــيش جـــوار اللَّـــ   ـــهِ في دار الأمـــــانِ[2]

فصل
في ذم الإفراط في حال النشاط والتفريط في حال الكسل

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِرَّةً[3]، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهَا سَدَّدَ وَقَارَبَ فَارْجُوهُ، وَإِنْ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فَلَا تَعُدُّوهُ»[4].

وعن عبد الله بن عَمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَإِنَّ لِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ

(١) «صبا نجد» (ص ٨٨).

(٢) «الطائف المعارف» (ص ٢٩٨-٢٩٩).

(٣) الشِرّة: الحرص على الشيء والنشاط لعمله.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٥٣) وغيره، وصححه الألباني.

أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»[1].

قلت: ففي هذين الحديثين الحث على اتباع السنة، ولزوم الهدي النبوي، والاقتصاد في الأعمال، وعدم الإفراط فيها في حال الحدة والنشاط، أو التفريط في حال الكسل والفتور.

فصل
في فضل المؤمن القوي والأمر بالحرص على ما ينفع والاستعانة بالله تعالى وترك العجز

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْـمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْـمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّـهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّـهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[2].

قال النووي: «قوله ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير)، والمراد بالقوة هنا: عزيمة النفس والقريحة في أمور

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (رقم ٥١)، وابن حبان في «صحيحه» (رقم ١١)، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) وغيره.

الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد، وأسرع خروجًا إليه وذهابًا في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلبًا لها ومحافظة عليها، ونحو ذلك».

قال: «وقوله ﷺ: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز)؛ معناه: احرص على طاعة الله تعالى، والرغبة فيما عنده، واطلب الإعانة من الله تعالى على ذلك، ولا تعجز ولا تكسل عن طلب الطاعة ولا عن طلب الإعانة».

وقال ابن سعدي[1]: «إن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته؛ قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وإن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوة، المضعفة للنفس». اهـ.

قلت: وقوله ﷺ: (فإن لو تفتح عمل الشيطان)؛ أي: تفتح عليك الحزن على ما مضى، والجزع من المقدور، وترك الصبر عليه، وذلك يضر ولا ينفع، وينافي التسليم لأمر الله عز وجل، والرضا بما قدّره، وينافي اليقين بأن ما أصابك فهو بإذن الله تعالى[2]، وأنه لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ٢٩٠).

(٢) كما قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ [التغابن: ١١].قالوا في تفسيرها: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم».

شرح نفيس لهذا الحديث
يتضمن فوائد عظيمة
وبرنامج في تحصيل المنافع الدينية والدنيوية

ولابن سعدي في شرح هذا الحديث كلام نفيس جدًّا أنقله إلى القارئ بحرفه، قال[1]: «هذا الحديث اشتمل على أصول عظيمة وكلمات جامعة:

فمنها: إثبات المحبة صفةً لله، وأنها متعلقة بمحبوباته وبمن قام بها، ودل على أنها تتعلق بإرادته ومشيئته، وأيضًا تتفاضل، فمحبته للمؤمن القوي أعظم من محبته للمؤمن الضعيف.

ودل الحديث على أن الإيمان يشمل العقائد القلبية والأقوال والأفعال، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: قول: «لا إله إلا الله»، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة منه[2].

وهذه الشعب التي ترجع إلى الأعمال الباطنة والظاهرة كلها من الإيمان، فمن قام بها حق القيام، وكَمَّل نفسَه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكَمَّل غيرَه بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر فهو المؤمن القوي الذي حاز أعلى مراتب الإيمان، ومن لم يصل إلى هذه المرتبة فهو المؤمن الضعيف.

وهذا من أدلة السلف على أن الإيمان يزيد وينقص، وذلك بحسب علوم الإيمان ومعارفه، وبحسب أعماله.

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» (ص ٤١-٥٠).

(٢) كما هو ثابت عن النبي ﷺ، انظر «صحيح مسلم» (رقم ٣٥).

وهذا الأصل قد دَلَّ عليه الكتاب والسنة في مواضع كثيرة.

ولما فاضل النبي ﷺ بين المؤمنين قويِّهم وضعيفهم خشي من توهم القدح في المفضول، فقال: (وفي كلٍّ خير)، وفي هذا الاحتراز فائدة نفيسة، وهي أن على مَنْ فاضل بين الأشخاص أو الأجناس أو الأعمال أن يذكر وجه التفضيل وجهة التفضيل، ويحترز بذكر الفضل المشترك بين الفاضل والمفضول، لئلا يتطرق القدح إلى المفضول، وكذلك في الجانب الآخر إذا ذُكِرَتْ مراتبُ الشر والأشرار، وذُكِرَ التفاوت بينهما، فينبغي بعد ذلك أن يُذكر القدر المشترك بينهما من أسباب الخير أو الشر، وهذا كثير في الكتاب والسنة.

وفي هذا الحديث أن المؤمنين يتفاوتون في الخيرية ومحبة الله والقيام بدينه، وأنهم في ذلك درجات: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾[الأنعام: ١٣٢، والأحقاف: ١٩].

ويجمعهم ثلاثة أقسام: السابقون إلى الخيرات، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وفضول المباحات، وكمَّلوا ما باشروه من الأعمال، واتصفوا بجميع صفات الكمال، ثم المقتصدون الذين اقتصروا على القيام بالواجبات وترك المحظورات، ثم الظالمون لأنفسهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيِّئًا.

وقوله ﷺ: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله) كلامٌ جامع نافع، مُحْتَوٍ على سعادة الدنيا والآخرة.

والأمور النافعة قسمان: أمور دينية، وأمور دنيوية، والعبد محتاج إلى الدنيوية كما أنه محتاج إلى الدينية، فمدار سعادته وتوفيقه على الحرص

والاجتهاد في الأمور النافعة منهما، مع الاستعانة بالله تعالى، فمتى حرص العبد على الأمور النافعة واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطرقها، واستعان بربه في حصولها وتكميلها: كان ذلك كماله وعنوان فلاحه، ومتى فاته واحدٌ من هذه الأمور الثلاثة: فاته من الخير بحسبها.

فمَنْ لم يكن حريصًا على الأمور النافعة بل كان كسلانًا لم يدرك شيئًا، والكسل هو أصل الخيبة والفشل، فالكسلان لا يدرك خيرًا ولا ينال مكرمة، ولا يحظى بدين ولا دنيا، ومتى كان حريصًا ولكن على غير الأمور النافعة؛ إما على أمور ضارة، أو مفوتة للكمال: كان ثمرة حرصه الخيبة، وفوات الخير، وحصول الشر والضرر، فكم من حريص على سلوك طرقٍ وأحوالٍ غير نافعة لم يستفد من حرصه إلا التعب والعناء والشقاء.

ثم إذا سلك العبد الطرق النافعة وحرص عليها واجتهد فيها لم تتم له إلا بصدق اللجأ إلى الله والاستعانة به على إدراكها وتكميلها، وأن لا يتكل على نفسه وحوله وقوته، بل يكون اعتماده التام بباطنه وظاهره على ربه، فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأحوال، وتتم له النتائج والثمرات الطيبة في أمر الدين وأمر الدنيا، لكنه في هذه الأحوال محتاج ـ بل مضطر غاية الاضطرار ـ إلى معرفة الأمور التي ينبغي الحرص عليها والجد في طلبها.

فالأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين: علم نافع، وعمل صالح.

أما العلم النافع: فهو العلم المزكي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين، وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديثٍ وتفسيرٍ وفقه، وما يعين على

ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان، وتعيين ذلك يختلف باختلاف الأحوال.

والحالة التقريبية: أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصر من مختصرات الفن الذي يشتغل فيه، فإن تعذر أو تعسر عليه حفظه لفظًا فليكرره كثيرًا، متدبرًا لمعانيه، حتى ترسخ معانيه في قلبه، ثم تكون باقي كتب هذا الفن كالتفسير والتوضيح والتفريع لذلك الأصل الذي عرفه وأدركه، فإن الإنسان إذا حفظ الأصول وصار له ملكة تامة في معرفتها هانت عليه كتب الفن كلها؛ صغارها وكبارها، ومن ضَيَّع الأصول حُرِمَ الوصول.

فمن حرص في علمه على هذا الذي ذكرناه واستعان بالله أعانه الله وبارك في علمه وطريقه الذي سلكه، ومن سلك في طلب العلم غير هذه الطريقة النافعة فاتت عليه الأوقات ولم يدرك إلا العناء، كما هو معروف بالتجربة، والواقع يشهد به.

فإن يَسَّر اللَّهُ له معلمًا يحسن طريقة التعليم ومسالك التفهيم تَمَّ له السبب الموصل إلى العلم.

والأمر الثاني ـ وهو العمل الصالح: فهو العمل الذي جمع الإخلاص لله والمتابعة للرسول ﷺ، وهو التقرب إلى الله باعتقاد ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحقه على عباده من العبودية، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وتصديق رسوله في كل خبر أخبرا به عما مضى وعما يستقبل، عن الرسل والكتب والملائكة وأحوال الآخرة والجنة والنار والثواب والعقاب

وغير ذلك.

ثم يسعى في أداء ما فرضه الله على عباده من حقوق الله وحقوق خلقه، ويكمل ذلك بالنوافل والتطوعات ـ خصوصًا المؤكدة ـ في أوقاتها، مستعينًا بالله على فعلها وعلى تحقيقها وتكميلها، وفعلها على وجه الإخلاص الذي لا يشوبه غرض من الأغراض النفسية.

وكذلك يتقرب إلى الله بترك المحرمات، وخصوصًا التي تدعو إليها النفوس وتميل إليها، فيتقرب إلى ربه بتركها لله، كما يتقرب إليه بفعل المأمورات.

فمتى وُفِّقَ العبدُ بسلوك هذا الطريق في العمل، واستعان بالله على ذلك، أفلح وأنجح، وكان كماله بحسب ما قام به من هذه الأمور ونقصه بحسب ما فاته منها.

وأما الأمور النافعة في الدنيا: فالعبد لا بد له من طلب الرزق، فينبغي أن يسلك أنفع الأسباب الدنيوية اللائقة بحاله، وذلك يختلف باختلاف الناس، ويقصد بكسبه وسعيه القيام بواجب نفسه وواجب مَنْ يعوله ومَنْ يقوم بمؤنته، وينوي الكفاف والاستغناء بطلبه عن الخلق، وكذلك ينوي بسعيه وكسبه تحصيل ما تقوم به العبوديات المالية: من الزكاة والصدقة والنفقات الخيرية الخاصة والعامة، مما يتوقف على المال، ويقصد المكاسب الطيبة، متجنبًا للمكاسب الخبيثة المحرمة، فمتى كان طلب العبد وسعيه في الدنيا لهذه المقاصد الجليلة، وسلك أنفع طريقٍ يراه مناسبًا لحاله كانت حركاته وسعيه

قربةً يتقرب إلى الله بها.

ومن تمام ذلك أن لا يتكل العبد على حوله وقوّته وذكائه ومعرفته وحذقه بمعرفة الأسباب وإدارتها، بل يستعين بربه متوكلًا عليه راجيًا منه أن ييسره لأيسر الأمور و أنجحها وأقربها تحصيلًا لمراده، ويسأل ربه أن يبارك له في رزقه، فأول بركة الرزق أن يكون مؤسَّسًا على التقوى والنية الصالحة، ومن بركة الرزق أن يوفق العبد لوضعه في مواضعه الواجبة والمستحبة، ومن بركة الرزق أن لا ينسى العبدُ الفضلَ في المعاملة، كما قال تعالى ﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، بالتيسير على الموسرين، وإنظار المعسرين، والمحاباة عند البيع والشراء بما تيسر من قليل أو كثير، فبذلك ينال العبد خيرًا كثيرًا.

فإن قيل: أي المكاسب أولى وأفضل؟

قيل: قد اختلف أهل العلم في ذلك، فمنهم مَنْ فضّل الزراعة والحراثة، ومنهم من فضّل البيع والشراء، ومنهم من فضّل القيام بالصناعات والحرف ونحوها، وكُلٌّ منهم أدلى بحجته، ولكن هذا الحديث هو الفاصل للنزاع، وهو أنه ﷺ قال: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»، والنافع من ذلك معلومٌ أنه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فمنهم من تكون الحراثة والزراعة أفضل في حقه، ومنهم من يكون البيع والشراء والقيام بالصناعة التي يحسنها أفضل في حقه، فالأفضل من ذلك وغيره الأنفع، فصلوات الله وسلامه على من أُعطي جوامع الكلم ونوافعها.

ثم إنه ﷺ حَضَّ على الرضا بقضاء الله وقدره بعد بذل الجهد واستفراغ

الوسع في الحرص على النافع، فإذا أصاب العبدَ ما يكرهه فلا ينسب ذلك إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها، بل يسكن إلى قضاء الله وقدره ليزداد إيمانه، ويسكن قلبه، وتستريح نفسه، فإن «لو» في هذه الحال تفتح عمل الشيطان بنقص إيمانه بالقدر، واعتراضه عليه، وفتح أبواب الهم والحزن المضعف للقلب.

وهذه الحال التي أرشد إليها النبي ﷺ هي أعظم الطرق لراحة القلب وأدعى لحصول القناعة والحياة الطيبة، وهو الحرص على الأمور النافعة، والاجتهاد في تحصيلها، والاستعانة بالله عليها، وشكر الله على ما يسَّره منها، والرضا عنه بما فات ولم يحصل منها.

واعلم أن استعمال «لو» يختلف باختلاف ما قُصِد بها، فإن استُعملت في هذه الحال التي لا يمكن استدراك الفائت فيها فإنها تفتح على العبد عمل الشيطان ـ كما تقدم، وكذلك لو استُعملت في تمني الشر والمعاصي فإنها مذمومة، وصاحبها آثم ولو لم يباشر المعصية، فإنه تمنى حصولها.

وأما إذا استُعملت في تمني الخير أو في بيان العلم النافع فإنها محمودة، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

وهذا الأصل الذي ذكره النبي ﷺ ـ وهو الأمر بالحرص على الأمور النافعة ومِنْ لازمه اجتناب الأمور الضارة مع الاستعانة بالله ـ يشمل استعماله والأمر به في الأمور الجزئية المختصة بالعبد ومتعلقاته، ويشمل الأمور الكلية المتعلقة بعموم الأمة، فعليهم جميعًا أن يحرصوا على الأمور النافعة، وهي

المصالح الكلية، والاستعداد لأعدائهم بكل مستطاع مما يناسب الوقت، من القوة المعنوية والمادية، ويبذلوا غاية مقدورهم في ذلك، مستعينين بالله على تحقيقه وتكميله، ودفع جميع ما يضاد ذلك، وشرح هذه الجملة يطول وتفاصيلها معروفة.

وقد جمع النبي ﷺ في هذا الحديث بين الإيمان بالقضاء والقدر، والعمل بالأسباب النافعة، وهذان الأصلان دل عليهما الكتاب والسنة في مواضع كثيرة، ولا يتم الدين إلا بهما، بل لا تتم الأمور المقصودة كلها إلا بهما، لأن قوله: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ» أَمْرٌ بكل سبب ديني ودنيوي، بل أمر بالجد والاجتهاد فيه والحرص عليه، نية وهمة، فعلًا وتدبيرًا.

وقوله: «وَاسْتَعِنْ بِاللَّـهِ» إيمان بالقضاء والقدر، وأَمْرٌ بالتوكل على الله الذي هو الاعتماد التام على حوله وقوته تعالى في جلب المصالح ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في نجاح ذلك، فالمتبع للرسول ﷺ يتعين عليه أن يتوكل على الله في أمر دينه ودنياه، وأن يقوم بكل سبب نافع بحسب قدرته وعلمه ومعرفته، والله المستعان». اهـ.

فصل
في أن العجز والكيس بقدر الله تعالى

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:
«كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ ـ أَوْ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ»[1].

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٥) وغيره.

قال ابن القيم[1]: «واللَّـهُ يلوم على العجز، ويحب الكَيْس، ويأمر به.

والكَيْس: هو مباشرة الأسباب التي ربط اللَّـهُ بها مسبِّباتِها النافعة للعبد في معاشه ومعاده، فهذه تفتح عمل الخير.

وأما العجز، فإنه يفتح عمل الشيطان، فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلى الأماني الباطلة بقوله: «لو كان كذا وكذا، ولو فعلت كذا»، يفتح عليه عمل الشيطان، فإنّ بابَه العجزُ والكسلُ، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما.

وهما مفتاح كل شر، ويصدر عنهما الهم والحَزَن، والجبن والبخل، وضَلَعُ الدَّين وغلبة الرجال، فمصدرها كلها عن العجز والكسل، وعنوانها «لو»، فلذلك قال النبي ﷺ: «فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[2].

فالمتمني من أعجز الناس وأفلسهم، فإن التمني رأس أموال المفاليس.

والعجز مفتاح كل شر، وأصل المعاصي كلها العجز، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات وعن الأسباب التي تبعده عن المعاصي وتحول بينه وبينها فيقع في المعاصي».

وقال حكيم: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير.

وقال غيره: فلان يخدعه الشيطان عن الحزم، فيمثل له التواني في صورة الهوينى بإحالته على القدر[3].

---

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٣٥٧-٣٥٨).

(٢) تقدم قبل قليل.

(٣) في «المستطرف»: «فيمثل له التواني في صورة التوكل».

وقال الشاعر[1]:

ولا تـركن إلى كسـلٍ وعجـزٍ تُحِيـل عـلى المقـادر والقضـاء

وقيل: ليس للعجز ضد إلا الحزم[2].

وقيل: التواني هو الكسل، وتضييع الحزم، وعدم القيام على مصالح النفس، وترك التسبب والاحتراف، والإحالة على المقادير، وهذا من أقبح الأفعال.

وقال أعرابي: العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأماني المستحيلة.

وقال الشاعر:

توكـل عـلى الـرحمن في الأمـر كلـه
ولا تـرغبن في العجـز يومًـا عـن الطلـبْ

ألم تـر أن الله قـال لمـريمٍ
وهـزي إليـك الجـذع يسّـاقط الرطـبْ

ولـو شـاء أن تجنيـه مـن غـير هـزه
جنتـه ولكـن كـل رزق لـه سـببْ

وقال آخر:

على المرء أن يسعى ويبذل جهده ويقضي- إله الخلق ما كان قاضيًا

---

(١) «ربيع الأبرار» (٣/ ٨٣-٨٥)، وكذلك ما قبله.

(٢) «المستطرف»، وكذلك الذي يليه.

(فائدة) في الفرق بين التوكل والعجز: قال ابن القيم رحمه الله تعالى[(١)]:
الفرق بين التوكل والعجز: أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتمادًا على الله وثقة به والتجاء إليه وتفويضًا إليه ورضًا بما يقضيه له، لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه، مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها.

فقد كان رسول الله ﷺ أعظم المتوكلين وكان يلبس لامته ودرعه، بل ظاهر يوم أحد بين درعين، واختفى في الغار ثلاثًا، فكان متوكلًا في السبب لا على السبب.

وأما العجز: فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما، فإما أن يعطل السبب عجزًا منه ويزعم أن ذلك توكل، ولعمر الله إنه لعجز وتفريط، وإما أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه معتمدًا عليه غافلًا عن المسبب معرضًا عنه، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ولم يعلق قلبه به تعلقًا تامًّا بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب، فهذا توكله عجز وعجزه توكل.

وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطًا: فأحد الطرفين عطل الأسباب محافظة على التوكل، والثاني عطل التوكل محافظة على السبب، والوسط عَلِمَ أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب.

وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع مُتَمَنٍّ، كمن عطل النكاح والتسري وتوكل في حصول الولد، وعطل الحرث والبذر وتوكل في حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والري، فالتوكل

---

(١) «الروح» (ص٢٥٤-٢٥٦).

نظير الرجاء، والعجز نظير التمني.

فحقيقة التوكل: أن يتخذ العبد ربه وكيلًا له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله للعلم بكفايته ونهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره.

والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال[1]، وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه، فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته، وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه سبحانه الـمَلِيّ بالوكالة الوفي بالكفالة.

فالعاجز من رمي هذا كله وراء ظهره وقعد كسلان طالبًا للراحة مؤثرًا للدَّعة، يقول: الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، وسيأتيني ما قدِّر لي على ضعفي، ولن أنال ما لم يقدَّر لي مع قوتي، ولو أنى هربت من رزقي كما أهرب من الموت للحقني.

فيقال له: نعم هذا كله حق، وقد علمت أن الرزق مقدر، فما يدريك كيف قدِّر لك بسعيك أم بسعي غيرك؟ وإذا كان بسعيك فبأي سبب ومن أي وجه؟ وإذا خَفِي عليك هذا كله فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوًا بلا سعي ولا كد؟ فكم من شيء سعيت فيه فقُدِّر لغيرك! وكم من شيء سعى فيه غيرك فقُدِّر لك رزقًا! فإذا رأيت هذا عيانًا فكيف علمت أن رزقك كله بسعي غيرك؟!

وأيضًا فهذا الذي أوردتْه عليك النفس يجب عليك طرده في جميع الأسباب

---

(١) من الحيلة، وهي الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف في الأمور. «وسيط».

مع مسبباتها، حتى في أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فهل تعطلها اعتمادًا على التوكل أم تقوم بها مع التوكل؟!

بل لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به، فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب، فسكن قلبه إلى الله واطمأن إليه ووثق به، وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه، فلم يعطل السبب وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه، فكان توكله أوثق الأسباب عنده، وكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كماله، فلم يتسع قلبه للأمرين فأعرض عن أحدهما إلى الآخر.

ولا ريب أن هذا أكمل حالًا ممن امتلأ قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه، وأكمل منهما من جمع الأمرين، وهي حال الرسل والصحابة، فقد «كَانَ زَكَرِيَّا نَجَّارًا»[1]، وقد أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة.

ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتمادًا على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين، ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل، وعمروا أموالهم وأصلحوها، وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت، اقتداء بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله.

* * * * *

(١) أخرجه مسلم (٢٣٧٩) وغيره، مرفوعًا.

الباب الثاني

في حكم باهرة ومواعظ بالغة
في ذم الكسل والحث على النشاط
في العلم والعمل

فصل
في حكم باهرة في ذم الكسل والحث على الجد والنشاط

قال ابن عباس: تزوج التواني بالكسل فوُلِد بينهما الفقر[١].

وقال الشَّمَرْدَل: نكح العجز التواني فولّد الندامة[٢].

وقيل: تزوج العجز التواني فنتج بينهما الحرمان[٣].

وقال أبو حاتم البستي: سبب النجاح ترك التواني، وداعي الحرمان الكسل، ومن التواني والعجز أُنتجَت الهلَكة.

وعن أكثم بن صيفي قال: ما يسرني أني نزلت بدارٍ مَعْجِزَةٍ[٤] فأسمنتُ وألبنتُ[٥]. قيل له: لِمَ؟ قال: لأني أخاف أن أَتَّخِذَ العجزَ عادة[٦].

وقال الخليل بن أحمد: التواني إضاعة، والحزم بضاعة، والإنصاف راحة،

---

(١) «الطب الروحاني» (ص ٥١).

(٢) «روضة العقلاء» (ص ٢١٨).

(٣) «محاضرات الأدباء».

(٤) دار معجزة: أي دار يُعجز فيها عن الاكتساب والعيش.

(٥) أي: صرت ذا سمن ولبن.

(٦) «روضة العقلاء» (ص ٢١٨).

واللَّجاج وقاحة[1].

وقال خالد بن بَرْمَك: من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق أن لا ينزل به كبير مكروه: العجلة، واللَّجاجة، والعُجْب، والتواني، فثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللَّجاجة الحَيْرة، وثمرة العُجْب البِغْضة، وثمرة التواني الذل[2].

وقد ذكر هذا ابن أبي أُصَيْبِعَة من كلام فيثاغورس[3].

وفي «بدائع الفوائد»[4] لابن القيم: «تحكمت أخلاط الشهوات في أعضاء الكسل، فثبطت عن الحركة، فتولدت الأمراض المختلفة، هذا وما يسهل عليك شرب مُسْهِل، فإن تداركتَ المرض وإلا قتل.

لو احتميت ساعة لم تحتج إلى معالجة الدواء مدة.

من ركب ظهر التفريط والتواني نزل به دار الحسرة والندامة.

من أدلج في غياهب الليل على نجائب الصبر صبح منزل السرور، ومن نام على فراش الكسل أصبح ملقًى بوادي الأسف.

الجِدّ كله حركة، والكسل كله سكون.

فتورك عن السعي في طلب الفضائل دليل على تأنيث العزم.

---

(١) «الجليس الصالح» للجريري (١/ ٤٥٨).

(٢) «روضة العقلاء» (ص ٢١٧).

(٣) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (١/ ٦٦-٦٧).

(٤) انظر (٣/ ٢٢٤ و٢٢٧ و٢٢٩ و٢٣٢ و٢٣٤).

إذا أردت أن تعرف الديك من الدجاجة وقت خروجه من البيضة فعَلِّقْهُ بمنقاره، فإن تحرك فديك وإلا دجاجة.

العلم والعمل توأمان أمهما علو الهمة، والجهل والبطالة توأمان أمهما إيثار الكسل.

منام المنى أضغاث، ورائد الآمال كذوب، ومرتع الشهوات وخيم.

العجز شريك الحرمان، والتفريط مصاحب الكسل.

لو صدق عزمك قذفتْك ديار الكسل إلى بيداء الطلب.

يا حاضرين معنا بنية النزهة لستم معنا، عودوا إلى أوكار الكسل، فالحرب طعن وضرب».

قلت: هذا أشبه بكلام ابن الجوزي.

وفي «الروح»[1]: الكسل قرين الفوت والإضاعة.

وله في«القصيدة النونية» تحت «فصل في إقامة المأتم على المتخلفين عن رفقة السابقين»، وذلك بعد أن ذكر شيئًا من نعيم الجنة وصفاتها:

بالله ما عذر امرئ هو مؤمن ... حقًّا بهذا ليس باليقظان؟
بل قلبه في رقدة فإذا استفا ... ق فلبسه هو حلة الكسلان
تالله لو شاقتك جنات النعيـ ... ـم طلبتها بنفائس الأثمان
وسعيت جهدك في وصال نواعم ... وكواعب بيض الوجوه حسان

(١) (ص ٢٨٥).

يا سلعة الرحمن لست رخيصة ... بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها ... في الألف إلا واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها ... إلا أولو التقوى مع الإيمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب ... فالمهر قبل الموت ذو إمكان؟
يا سلعة الرحمن لولا أنها ... حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف ... وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة ... ليصد عنها المبطل المتواني
وتنالها الهمم التي تسمو إلى ... رب العلى بمشيئة الرحمن
رفعت لهم في السير أعلام السعا ... دة والهدى يا ذلة الحيران
فتسابق القوم وابتدروا لها ... كتسابق الفرسان يوم رهان
وأخو الهوينى في الديار مخلّف ... مع شكله يا خيبة الكسلان

وللمتنبي:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا ... كنقص القادرين على التمام

وشرحه المعري فقال: «يقول: ليس في الإنسان عيب أقبح من أن يكون ناقصًا مع قدرته على الكمال».

قال: «وقيل: معناه ليس عيب أقبح من الكسل».

ولغيره:

وقيمة المرء ما قد كان يحسنه ... فاطلب لنفسك ما تعلو به وسَلِ

اطلب تَنَلْ لَذةَ الإدراك ملتمسًا   أو راحة اليأس لا تركن إلى الوَكَلِ
فكلّ داءٍ دواه ممكن أبدًا   إلا إذا امتزج الإقتار بالكَسَلِ

فصل

ومن «ربيع الأبرار»[1] للزمخشري:

علي رضي الله عنه: من أطاع التواني ضيع الحقوق.

كُتِبَ على عصا ساسان[2]: الحركة بركة، والتواني هَلَكَة، والكسل شؤم، والتواني زادُ العَجَزَة، وكَلْبٌ طائفٌ خيرٌ من أسدٍ رابض.

قلت: وقد كنت سميت كتابي هذا من قبل: «عصا ساسان في ذم العجز والتوان»!!

من العجز والتواني نتجت الفاقة.

قال أبو المعافى:

إن التـــواني أنكـــح العجـــز بنتـــه   وســـاق إليهـــا زوجُهـــا مهـــرًا
فـــر اشًـــا وطيئًـــا قـــال لهـــا اتكـــي   فقصر ـاكما لا شـك أن تلـدا الفقـرا

شاعر:

لا تَضْجَرَنَّ ولا تأخذْك مَعْجَزَةٌ   فالنُّجح يذهب بين العجز والضَّجَرِ

---

(١) (٣/ ٨٣-٨٧).

(٢) وفي «نثر الدر»: «كان مكتوبًا بالذهب».

أعرابي: العاجز هو الشاب القليل الحيلة، الملازم للحليلة.

لبيد[1]:

[وإذا رُمْـتَ رحيلًا فارتحـــلْ]　　واعصِ ما يأمُر توصيمُ الكسل

الخيبة نتيجة مقدمتين: الكسل، والفشل، وثمرة شجرتين: الضجر، والملل.

شعاره الكسل، ودثاره التسويف والعلل.

الكسل باب الخصاصة.

الكسلان إذا أرسلته في حاجة تكهن عليك.

يسحب رِجلًا لا تكاد تنسحب.

لـو سـابق الـذَّرَّ مشـدودًا قوائمـه　　يـوم الرهـان لكـان الـذرُّ يَسْـبِقُهُ

التعبد يَثْقُل على أهله كثقله في الميزان، والكسل يَخِفّ على أهله كخفته في الميزان.

لقمان[2]: يا بني إياك والكسل والضجر، فإنك إن كسلت لم تؤدّ حقًّا، وإذا ضجرت لم تصبر على حق.

طاهر بن المفضل: الكسلان منجم، والبخيل طبيب.

ابن السماك: جلاء القلوب استماع الحكمة، وصدؤها الملالة والفتور.

(١) الزيادة من «فصل المقال» وغيره.

(٢) وينسب للأحنف، كما في «محاضرات الأدباء» وغيره.

ومن «**نفح الطيب**»:

الكسل مزلقة الربح، ومسخرة الصبح.

إذا رقدت النفس في فراش الكسل استغرقها نوم الغفلة.

الندامة في الكسل كالسم في العسل.

الكسل آفة الصنائع، وأَرَضَة في البضائع.

بابَ السعادة ظَهْرُ العجز والكسل ظهران لا يُبَلِّغان المرءَ إن رُكِبا

وفي «بهجة المجالس»: أقبح الأشياء بالسلطان اللَّجاج، وبالحكماء الضجر، وبالفقهاء سخافة الدين، وبالعلماء إفراط الحرص، وبالمقاتِلة الجبن، وبالأغنياء البخل، وبالفقراء الكبر، وبالشباب الكسل، وبالشيوخ المزاح، وبجماعة الناس التباغض والحسد.

وفي «لباب الآداب»: قال حكيم: الكسل يمنع من الطلب، والفشل يدفع إلى العطب.

وفي «رسائل الثعالبي» :

دع التكاسل في الخيرات تطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلان

ومن الأمثال المضروبة في ذم الكسل ـ كما في «مجمع الأمثال»: «إن السِّلاء لمن أقام وولد»، يقال: سلأت السمنَ سَلْأً إذا أذبته، والسِّلاء بالمد المسلوء، يعني أن النتاج ومنافعه لمن أقام وأعان على الولادة لا لمن غفل وأهمل. يضرب في ذم الكسل.

وفي «مفاكهة الخلفاء»: قال النديم: رأيت في بعض الأقاليم من الأراضي الحامية والبلاد القاصية حيوانًا كبيرًا سريع السير متردِّدٌ شكلُه بين شَكْلَي الجمل والطير، يُضرب به في الدبدبة المثل، فيتعاطى التعلل في الكسل، إن قيل له: احمل، يقول: أنا طير، وإن قيل له: طِرْ، يقول: أنا جمل. وذكر أن اسمه النَّعَام.

فصل

ومن حكم الإمام ابن الجوزي:

من «المدهش»:

«ما زالت الدنيا مُرَّة في العَبرة، ولكن قد مرض ذوقك، لسان قلبك في عقله غفلة، وسَمْعُ فهمك مسدود عن الفطنة بقطنة، وَبَصَرُ بصيرتك محجوب بعشا عمى، ومزاج تقواك منحرف عن الصحة، وأما نبض الهوى فشديد الخفقان، سارت أخلاط الأمل في منافذ الفهوم سُدُدًا، وما يَسهل عليك شرب مُسْهل»(١).

«من نام على فراش الكسل سال به سيل التمادي إلى وادي الأسف.

فتورك عن السعي في طلب الفضائل دليل على تأنيث العزم.

يا من قد بلغ أربعين سَنة، وكل عمره نوم وسِنة، يا متعِبًا في جمع المال بدنه، ثم لا يدري لمن قد أخزنه، أعلِم هذه النفس الممتَحنة، أنها بكسبها مرتهنة.

---

(١) (ص ١٥١).

ألا يعتبر المغرور بمن قد دفنه؟ كم أرى جبارًا فارق مسكنه؟ ثم سَكَنَ مَسْكَنَ مَسْكَنَةٍ.

أيا راحلين بالإقامة، يا هالكين بالسلامة، أين من أخذ صفو ما أنتم في كدره؟ أما وعظكم في سيره بسيره؟ بلى قد حمل بريد الإنذار أخبارَهم، وأراكم تَصَفُّحُ الآثار آثارَهم»[1].

«التواني أبو الفقر. البطالة أم الحزن. التفريط أخو الندم. الكسل ابن عم الحسرة. ما يحصل برد العيش إلا بحر التعب. ما العز إلا تحت ثوب الكد. على قدر الاجتهاد تعلو الرتب. لما صابر النِّضوُ[2] مشقة السير معرضًا عن أعراض المطاعم زُيِّنَ بالجِلال[3] يوم العيد، ولما تكاسلت البخاتي[4] مَيْلًا إلى كثرة العلف وَقَعَ ببختها الذبح»[5].

«يا مقيمًا على الهوى وليس بمستقيم، يا مبذرًا في بضاعة العمر متى يؤنَس منك رشد؟ يا طويل الرقاد ولا نوم أهل الكهف، كيف يفلح مَنْ هو والكسل كندمانَي جَذِيمة[6]؟!»[7].

---

(١) (ص ١٥٤ و١٥٥).

(٢) النَّضو هنا: البعير الذي هزلته الأسفار وأذهبت لحمه.

(٣) جُلُّ الدابة وجَلُّها: الذي تُلْبَسه لتُصان به، والجمع جِلال وأجلال. «لسان».

(٤) الإبل الخراسانية.

(٥) (ص ١٧٥-١٧٦).

(٦) هما مالك وعقيل، يضرب المثل بهما للمتواخيين، فيقال: «هما كنَدْمَانَي جَذِيمة». قالوا: دامت لهما رتبة المنادمة أربعين سنة. وجَذِيمةُ هو: الأبرش ملك الحِيرة صاحب الزبّاء.

(٧) (ص ١٨٨).

«كيف يلحق السابقين كسلانُ أعرجُ؟ لو تنقّلْتَ على عَيْطَمُوسِ[1] العزم، وهَوْجَاءِ[2] الطلب، وعَيْسَجُورِ[3] القصد، وجَلْعَبَاةِ[4] السير، ومُشْمَعِلَّةِ[5] الجِدّ، ووصلتَ الدَّيْجُورَ[6] بالضحى، لانقطعتِ الدَّيْمُومَةُ القَذَفُ[7]، ولكنك استوطأت مهادَ الكسل، وإبرَ النحل دون العسل»[8].

«بين العجز والتواني ينتج الهوى»[9].

«يا أطيار القلوب إلى كم في مزبلة الحبس؟ اكسري بالعزم قَفَص الحصر، واخرجي إلى فضاء صحراء القدس، روحي خماصًا من الهوى تعودي بطانًا من الهدى.

بين أبي الحركة وأم القصد ينتج ولد الظَّفَر.

لا يُنال الجسيم بالهوينى.

حمل النفس على حمل المشاق مدرجة إلى الشرف.

وا عجبا من توقف الكالي والدّرّ يُنثر! أشهود كغياب؟ أكانون في آب؟

---

(١) الشديدة الضخمة التامة من النوق.

(٢) السريعة من النوق.

(٣) الصُّلبة من النوق.

(٤) الناقة الشديدة في كل شيء، واجْلَعَبَّتِ الإبل: جَدّت في السير.

(٥) الخفيفة السريعة النشيطة من النوق.

(٦) الظلام.

(٧) أي: المفازة البعيدة.

(٨) (ص ٢٢٩).

(٩) (ص ٢٤٥).

الحرب خصام قائم وأنت غلام نائم.

ادخل بسلامتك لابسًا لامتك.

ليس في سلاح المحارب أحدّ من نبلة عزم.

أجرأ الليوث أجرها للصيود.

ليس عزمًا ما مرض العزم فيه، ليس همًّا ما عاق عنه الظلام.

طر بجناح الجِدّ من وكر الكسل، تابع آثار الأحباب تصل»[١].

«ما تخفى علامات الإدبار عليك، تُفَتَّش دارُك فلا يُرى سواكٌ للطهارة، بل ملاعق الأكل، ليس في البيت مصحف بل تقويم، أينفع وجود التقويم؟ يا مهتمًّا بالنظر في الطالِع، طالع ما قد خبِّئ لك، كأنك بالموت قد طلع، وما طالَع فكرُك عاقبة، اسمع حسابي حقًّا وما أرجم، ودَعْ لكلماتي هذي قول الهاذي المنجم: إن ضُمَّ الندمُ على التفريط إلى العزيمة على الإنابة فساعةُ سَعْد، وإن اجتمع في القلب حب الدنيا على إيثار الكسل فقِران نَحْس»[٢].

«البِدار إلى الشهوات والندامة فرسا رهان، والتواني عن التوبة والخيبة رضيعا لِبان[٣].

يا من عمره يذوب ذوبان الثلج، توانيك أبرد»[٤].

---

(١) (ص ٢٩٠).

(٢) (ص ٢٩٤).

(٣) (ص ٣١٤).

(٤) (ص ٣٥٤).

«إخواني، الأيام صحائف الأعمار فخلِّدوها أحسن الأعمال.

الفرص تمر مَرَّ السحاب، والتواني من أخلاق الخوالف.

من استوطأ مركب العجز عثر به.

تزوج التواني بالكسل فوُلِد بينهما الخسران»[١].

«طريق الوصول صعبة، وفي رجلك ضعف.

ويحك دُمْ على السلوك تصل.

أول النخلة السَّحوق[٢] فسيلة. بداية الآدمي الشريف مضغة.

ثمن المعالي جِدُّ الطلب، والفتور داءٌ مزمن.

بلد الرياضة سحيق، ﴿**لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس**﴾.

سحابة الصيف أثبت من قولك، والخَطّ على الماء أبقى من عهدك»[٣].

«عباد الله، إنما الأيام طرق الجِدّ، والساعات ركائب المجد، وأيام العافية أوقات تستدرك، وأحيان السلامة تنادي: مَنْ جَدّ أدرك»[٤].

«إخواني، العمر أنفاس تسير بل تطير.

الأمل منام لا تُرى فيه إلا الأحلام.

---

(١) (ص ٣٦٩).

(٢) أي: الطويلة.

(٣) (ص ٤٧٦).

(٤) (ص ٥٣٩).

هذا سيف الموت قَدْ دَنا، فإن ضرب قَدَّنا، هذا الرحيل ولا زادَ عندنا.

انتبهوا من رقاد الغفلة، تيقظوا من نوم العطلة، عَرِّجوا عن طريق البطالة، أبعدوا عن ديار الوحشة»[١].

من «التبصرة»:

«يا هذا صُنْ حياة عقلك عن مخالطة غَوْغاء نفسك.

من طلب المعالي استقبل العوالي.

من لازم الرُّقاد فاته المراد. من دام كسله خاب أمله.

مَنْ صَغُرَتْ نفسُه فهِمّته ... أبلغ في قَصْده من المِحَنِ
وقَلَّ ما التذّ بالسرور فتًى ... لم يَجْنِهِ من عواقب الحَزَنِ[٢]

إنما لذات الدنيا كخطف البروق، مَيِّز بين ما يفنى وما يبقى تَرَ الفروق، خَلِّ التواني إن شئت أن تفوق»[٣].

قائـــد الغفلـــة الأمـــل ... والهـــوى رائـــد الزَّلَـــلْ
قَتَـــلَ الجهـــلُ أهلَـــه ... ونجـــا كـــلُّ مَـــنْ عَقَـــلْ
فـــاغتنم دولـــة الشبيـــ ... ـــبة و اســـتأنف العمـــلْ
أيهـــا المبتنـــي الحصـــو ... نَ وقـــد شـــاب واكتهَـــلْ

(١) (ص ٢٤١).
(٢) (٢/ ٢٦).
(٣) (٢/ ٩١).

أخـــبَرَ الشـــيبُ عنـــك أنـــ ـــــك في آخـــــر الأجَـــــلْ
فعـــــــلام الوقـــــــوف في عَرْصـــة العَجْـــز والكســـلْ
منـــــزلٌ لم يَـــــزَلْ يضيـــــ ـــــقُ ويَنْبـــو بمـــــن نَـــزَلْ
أنـــــــت في منـــــــزلٍ إذا حَلَّـــــهُ نـــــازلٌ رَحَـــــلْ[1]

من «صبا نجد»:

«يا من قد رماه الأمل في هُوَّة الكسل، ويحك! كلما عَلَتْ سِنُّك وَقَعَتْ آجُرَّةٌ[2] من حائط عمرك، ولا بد يومًا أن يهوى وأنت تحت الهدم[3].

ويحك! اقتطِفْ من الثمار ما دنا، واختطِفْ من النِّثار ما قَرُبَ منك، فأما الرضا بالكسل فشغل المخانيث[4]»[5].

من «روح الأرواح»:

«يا تائهًا في قِفَار التسويف، أخطأت الطريق، صَبِيُّ غفلتك يقول: إذا شِبْتُ تبت، ولسان القواطع يناديه: ﴿**هيهات هيهات لما توعدون**﴾.

علامة الهلاك للمريض التسويف.

---

(١) (١/ ٢٥-٢٦).
(٢) أي: لَبِنَة.
(٣) (ص ٤٥).
(٤) جمع مُخَنَّث، وهو الذي لا يخلص لذكر ولا أنثى. وتَخَنَّثَ الرجلُ إذا فعل فِعْلَ الـمُخَنَّث، أي: تَثَنَّى وتكَسَّر. راجع «اللسان».
(٥) (ص ٤٦).

قواعد آمالك مبنية على شفا جرف هار[١].

كلما ابيضّ الشَّيبُ اسودَّتِ الصحائف، كلما ضَعُفَتِ القوةُ قَوِيَ المرض، كلما قَصُر الأجلُ طال الأمل»[٢].

من «اللطف في الوعظ»:

«ويحك! إن البحر لا ينزف فاقنع بالري.

ويحك! سير التواني سفر لا ينقطع.

هيهات أن يستغني مَنْ لا يكفيه ما يكفيه[٣].

ويحك! إن المفروح به هو المحزون عليه لو فطنت.

الدنيا خمر كلما شرب منها الحريص زاد عطشه»[٤].

«وا عجبا! قوسك مكسورة بالزلل، ووترك مقطوع بالكسل، فكيف تنال صدر الغرض[٥]؟!

إذا أردت العلو فارتق درج التقوى، وإن شئت العز فضع جبهة التواضع، وإن آثرت الرياسة فارفع قواعد الإخلاص، فوالله ما تحصل المناصب بالمنى.

---

(١) أي: طَرَف مَهواةٍ يوشك على السقوط.

(٢) (ص ١٠٣).

(٣) في نسخة مطبوعة: «بكفه».

(٤) (ص ٥٢).

(٥) الغرض: الهدف الذي يُرمى إليه.

دينار المبهرج وإن نفق مردود، وقد يتزيّا بالهوى غير أهله.

إذا نزلت عن مطية الإخلاص مشَيْت في حَسَك التعثر، فتقطعت قدم القصد ولم ينقطع المنزل»[1].

«الطمع مركب التلف، والحزم مطية النُّجح، والتواني أبو الفاقة، والبطالة أم الخسران، وما يحصل برد العيش إلا بحر التعب، ما العز إلا تحت ثوب الكد»[2].

من «بحر الدموع»:

«يا هذا، إلى متى تسمعُ أخبارَهم ولا تقفو آثارهم، اطلب رفقة التائبين عساك لطريقهم تُرْشَد، اندب على بعادك يا مطرود، فمثلك من بكى وعدد، اعتذرْ يا مهجور، عساك بالذل تَسْعَدْ، وقل بلسان التذلل والأسف والكمد:

كم ذا التلوّم لا إقلاع يصحبه ... ولا عزيمةً هذا العجز والكسلُ
وكم أُرَدِّدُ أقوالًا ملفقةً ... ما ينفع القولُ إن لم يَصدُقِ العملُ

وا عجبا! كم لي أعاتب المهجورَ والعتب ما ينفع! كم لي أنادي أُطروش الغفلة لو كان النداء يُسمع! كم لي أحدّث قلبك وفي سماعك أطمع!

واهًا عليك يا جامد العين قطُّ ما تدمع! من علامة الخِذلان قلب لا يخشع، قلبك ذهب في حبّ الفاني، وأنت للحرام تجمع، عليك يا غافلُ في جمعه

---

(١) (ص ٥٦).

(٢) (ص ٧٨).

الحسابُ وتخلّفه لمن لا ينفع، بينما أنت في بستان اللهو إذ قيل: فلانٌ سافر وليس في رجوعه مطمع»[1].

«يا أسيرًا في قبضة الغفلة، يا صريعًا في سكرة الـمُهلة، يا ناقض العهد، انظر لمن عاهدت في الزمن الأول، أكثرُ العمر قد مضى وأنت تتعلل، يا مدعوًّا إلى نجاته وهو يتوانى، ما هذا الفتور والعمر قد تدانى؟ كأنك بالدمع يجري عند الموت تَهْتَانًا[2]»[3].

من «المنثور»:

«يا مَنْ ذهب عمره في البَطالة، ورضيَ من الدنيا بأقبح حالة، معمورُ الظاهر والباطن مهدوم.

يا معاشر العُصاة لا تحتقروا ذنبًا وإن صَغُر، فإنّ الحشيش يُفْتَلُ منه الحَبْلُ فيخنق الفيل الـمُغْتَلِم[4]. أول الحريق شرارة.

يا من يُذنب ولا يتوبُ، يا من أعمت قلبَهُ الذنوب، يَعِدُ بالتوبة ولا وَعْدَ عُرقوب»[5].

«إلى متى تتعثر في ظلمة البعاد؟ عِدْ نفسك بتوبةٍ واعزم وقد حَصَّلْتها.

وَعَـدْتَ نفسَـكَ توبـةً اعـزم وقـد حَصَّـلْتَها

---

(١) (ص ٦٧).

(٢) أي: مُنْصَبًّا.

(٣) (ص ١١١).

(٤) أي: الهائج.

(٥) رجل من العمالقة، يضرب به المثل في خُلْف الوعد، يقال: «مواعيده مواعيد عُرْقُوبٍ».

قد صاح بوقُ رحيلك، وحُطَّتْ أطنابُ الخِيَم، وما يُرى لك مركب، وما يُرى لك زاد»[1].

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(١) (ص ٨٧-٨٨).

فصل
في مواعظ بليغة
في ذم الكسل والحث على النشاط

أيا كثير الشقاق

أيا كثير الشقاق، يا قليل الوفاق، يا مرير المذاق، يا قبيح الأخلاق، يا عظيم التواني، قد سار الرفاق، يا شديد التمادي، قد صعب اللَّحاق، إخلاصك معدوم وما للنِّفاق نَفاق، معاصيك في إدراك والعمر في إمحاق، وساعي الأجل مُجِدٌّ كأنه في سباق، لا الوعظ يزجرك، ولا الموت ينذرك، ما تطاق![1].

اسمع يا خائن الذمم

اسمع يا خائن الذمم، يا مضيع الحُرَم، يا من على التوبة عزم زعم، غير أنه كلما بنى أن يلوذ بنا هدم، يسعى إلى الهدى فإذا رأى جيفة الهوى جثم، ويحك إطلاق البصر في سور الحذر ثَلَم، عجبًا لأمنك وأنت بين فَكَّي جَلَم[2]! كأنك بك تتمنى العدم، وتبكي على تفريطك بندم، إلى كم هذا

(١) «التبصرة» (١/ ٣٠).

(٢) الجَلَم: ما يُجَزُّ به الشعر والصوف.

التواني كم كم وكم؟!

إياك والدنيا فما تُشْفِي من قَرَم[1]، لمن نحدِّث لقد نفخنا من غير ضَرَم.

كــم أســيرٍ لشــهوةٍ وقتيــلِ أفٍّ لــمشْتَرٍ خِــلافَ الجميــلِ
شــهوات الإنســان تورثــه الــذلَّ وتلقيــه في الــبلاء الطويــلِ[2]

الأيام سفر ومراحل

إخواني، الأيام سفر ومراحل، وما يحس بسيرها الراحل، حتى يبلغ البلد أو الساحل، فليبادر المستدرِك وما أظنه يدرك.

ما هذه الغفلة والفتور! أمَا المآل إلى اللحود والقبور؟ أما علمتم منتهى السرور؟ أمَا الأجداثُ المنازل إلى النشور؟

أيها الشاب، ضيعت الشباب في جهلك، أيها الكهل، بعض فعلك يُهلك، أيها الشيخ، آن الرحيل عن أهلك، أيها المغتر بالأمل، قد نَقَضَتْ كَفُّ الأجل مجدول حبلك، أيها الغافل، أما أنذرك من كان من قبلك؟

مــات الأبُ الأعــلى وتابَعَــه أبنــاؤه ففَنُــوا ونحــن نَسَــقْ
في الــترب مــن أبنائنــا رِمَــمٌ كــانوا لنا سَــلَفًا ونحـن لَـحَقْ[3]

---

(١) القَرَم: شدة الشهوة إلى اللحم.

(٢) «التبصرة» (١/ ١٩٦-١٩٧).

(٣) «التبصرة» (١/ ٢٨٤).

أسمع قولاً بلا عمل

أسمع قولًا بلا عمل، وأرى خلالًا خلالها الخَلَل، إذا دُعيتَ إلى الخير جاء الكسل، وقلت: لو شاء أن يوفقني فعل، وإذا لاحت المعاصي كَرَّ البطل، ويقول: ﴿**خُلِقَ الإنسان من عجل**﴾، ويحك! هذا الشيب قد نزل، يخبرك بقرب الأجل، خلت الديار وناح الطلل، أيحتاج المهم إلى اعتدل؟ يا قبيح الخصال إلى كم زلل؟ ما لكبيرٍ في العَذل لا ناقة ولا جمل.

عليك بما يُفيدك في المعادِ … وما تنجو به يوم التّنادِ
فما لك ليس ينفع فيك وعظٌ … ولا زجر كأنك من جمادِ
ستندم إن رحلتَ بغير زادٍ … وتشقى إذ يناديك المنادي
فلا تفرح بمالٍ تقتنيهِ … فإنك فيه معكوس المرادِ
وتب مما جنيت وأنت حيٌّ … وكن متنبهًا من ذا الرُّقادِ[1]

يا من عليه منازل الموت تدور

يا من عليه منازل الموت تدور، وهو مستأنس بالمنازل والدور، لا بد أن تخرج من القصور، على التواني والقصور، لا بد من الرحيل إلى بلاد القبور، على الغفلات وعلى الفتور، أهلكك والله الغَرور، بفنون الخداع والغُرور.

يا مظلم القلب وما للقلب نور، الباطن خراب والظاهر معمور، لو

(١) «التبصرة» (١/ ٢٨٥).

ذكرت القبر المحفور، كانت عين العين تفور، ولو تفكرت في الكتاب المسطور، دفنت الاستغفار بين السطور، ولو تصورت النفخ في الصور، والسماء تتغير وتمور، والنجوم تنكدر وتغور، والصراط ممدود ولا بد من عبور، وأنت متحير في الأمور، تبكي على خلاف المأمور.

ستحاسَب على الأيام والشهور، وترى ما فعلته من فجور، في النهار والديجور، ستحزن بعد السرور، على تلك الشرور، إذا وفِّيَتْ الأجور، وبان المواصَل من المهجور، ونجا المخلصون دون أهل الزور.

تصلي ولكن بلا حضور، وتصوم والصوم بالغِيبة مغمور، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩][(١)].

يا مشغولاً قلبه بلبنى وسعدى

يا مشغولًا قلبه بلبنى وسُعدَى، يا مستلذ الرقاد وهذي الركائب تُحدَى، يا عظيم المعاصي يا مخطئًا جدًّا، يا طالما طال ما عتا وتعدَّى، كم جاوز حدًّا! وكم أتى ذنبًا عمدًا! يا أسير الهوى قد أصبح له عبدًا، يا ناظمًا خرزات الأمل في سلك المنى عقدًا، يا معرضًا عما قد حَلَّ كم حل عقدًا! كم عاهد مرة وكم نقض عهدًا! من لك إذا سقيت كأسًا لا تجد من شربها بدًّا؟ مزجت أوصابًا وصابا، صار المصاب عندها شهدًا، من لك إذا لحقت أبًا وأمًّا وأخا وعمًّا وجَدًّا؟ وتوسدت بعد اللِّين حجرًا صلبًا صلدًا، وسافرت سفرًا يا له من سفر

(١) «التبصرة» (١/ ٣٢٥).

بعدًا، واحتوشك عملك هَزْلًا كان أو جِدًّا، ولقِيت منكرًا ونكيرًا فهل لقيت أسدًا؟ فبادر قبل الموت فما تستطيع للفوت ردًّا.

نهاك عن البطالة والتصابي　　نحولُ الجسم والرأسُ الخضيبُ
إذا ما مات بعضُك فابك بعضًا　　فبعض الشيء من بعض قريبُ[1]

﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾

لله أقوام امتثلوا ما أُمروا، وزُجروا عن الزلل فانزجروا، فإذا لاحت الدنيا غابوا وإذا بانت الأخرى حضروا، فلو رأيتهم في القيامة إذا حُشِروا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ [المؤمنون: ١١١].

جَنَّ عليهم الليل فسهروا، وطالعوا صحف الذنوب فانكسروا، وطرقوا باب المحبوب واعتذروا، وبالغوا في المطلوب ثم حَذِروا، فانظر بماذا وُعِدوا في الذكر وذُكِروا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

ربحوا والله وما خسروا، وعاهدوا على الزهد فما غدروا، واحتالوا على نفوسهم فملكوا وأسروا، وتفقدوا أنعم المولى فاعترفوا وشكروا، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

استوحشوا من كل جليس، شغلًا بالمعنى النفيس، وزَمُّوا مطايا الجِدِّ فسارت العيس، وبادروا الفرصة ففاتوا إبليس، لا وقفوا ولا فتروا، ﴿إِنِّي

(١) «التبصرة» (١/ ٢١٥).

﴿جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

قلوبٌ في [الطاعة] حضرتْ، أسرارٌ بالصدق عَمَرَتْ، كم شهوة في صدورهم انكسرت! أخبارهم تحيي القلوب إذا نُشِرت، ويقال عن القوم إذا نُشِروا: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

جَدُّوا فليس فيهم مَنْ يلعب، ورفضوا الدنيا فتركوها تَخْرَب، وأذابوا قلوبهم بقلة المطعم والمشرب، فغدا يقال: كُلْ يا مَنْ لم يأكل واشرب يا مَنْ لم يَشرب، أذكارهم في الحياة وإن كانوا قُبِروا، ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

عَلِمُوا أن الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينة، وأن من وافق مرادها فارق دينه، فحَذِروا من غرورٍ يجدي غبِينة[1]، فركبوا من التقى في سفينة، أشحنوها بالزاد وعبروا، ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

طوبى لهم والأملاك تتلقاهم، كشف الحجاب عن عيونهم فأراهم، هذا أقصى آمالهم وقد ظَفِروا، ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

بلَّغَنا الله ذلك المبلغ، وأسمعنا زجر الناصح فقد أبلغ، وسترنا من العقاب فإنه إن عفا أسبغ، ولولا عونه ما قَدِروا، ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾[2].

---

(١) الغَبِينة: الخديعة، يقال: لَحِقَتْه في تجارته غَبِينة.

(٢) «التبصرة» (١/ ٢٠٢-٢٠٣).

استدرك ما بقي من الأيام

إخواني، إن شهر رمضان قد قَرُب رحيله وأَزِف تحويلُه، وهو ذاهب عنكم بأفعالكم وقادم عليكم غدًا بأعمالكم، فيا ليت شعري ماذا أودعتموه؟ وبأي الأعمال ودّعتموه؟ أتراه يرحل حامدًا صنيعكم أو ذامًّا تضييعكم؟!

ما كان أعظم بركات ساعاته! وما كان أحلى جميع طاعاته! كانت لياليه ليالي عتق ومباهاة، وأوقاته أوقات [عبادة] ومناجاة، ونهاره زمان قربة ومصافاة، وساعاته أحيان اجتهاد ومعاناة، فبادروا البقية بالتقية قبل فوات البِرّ ونزول البرية، وتخلي عنك جميع البرية.

أين المخلص المتعبد؟ أين الراهب[1] المتزهد؟ أين المنقطع المتفرد؟ أين العامل المجوِّد؟ هيهات بقي عبد الدنيا ومات السيد، وهلك من خطؤه خطأ وعاش المتعمد، وصار مكان الخاشعين كل منافق متمرد.

رحل عنك شهر الصيام، وودعك زمان القيام، ولَحَّ النصيح وقد لام، أفتشرق شمس الإيقاظ وتنام؟! فاستدرِك ما قد بقي من الأيام، قد رأيتك توانيت في الأولى والثانية والثالثة فما بعد أن دنا الصباح؟![2].

الجد أولى بك من التواني والفتور

يا من يفرح في العيد بتحسين لباسه، ويوقن بالموت وما استعد لباسه، ويغتر بإخوانه وأقرانه وجلّاسه، وكأنه قد أَمِن سرعةَ اختلاسه، كيف تقر

(١) أي: الخائف.

(٢) «التبصرة» (٢/ ١٠٩-١١٠).

بالعيد عين مطرود عن الصلاح؟! كيف يضحك سِنٌّ مردود عن الفلاح؟! كيف يُسَرّ من يُصِرّ على الأفعال القباح؟! كيف لا يبكي من قد فاته جزيل الأرباح؟!

النَّوح أحق بك من السرور يا مغرور، والحزن أجدر بك من جميع الأمور، والجِدّ أولى بك من التواني والفتور، كيف يُسَرّ بعيده من تاب ثم عاد؟! كيف يفرح بالسلامة مَنْ آثامه في ازدياد؟![1].

آن الرحيل وما عندكم خبر

إخواني، آنَ الرحيلُ وما عندكم خبر، إلى كم تُوعظون ولا تَتَّعظون، وتُوقَظون ولا تتيقظون، وتُتْعِبون الناصح ولا تَقْبَلون، ويكفي في البيان رؤية الأقران يرحلون، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

أَكُلِّفْتُم ما لا تُطيقون؟ أَكُلِّمْتُم بما لا تَفهمون؟ ما لكم عن مآلكم معرضون؟ ما هذا الفتور وأنتم سالمون؟ ما هذا الرقاد وأنتم منتبهون؟

كم مؤمل إدراك شهر ما أدركه؟ فاجأه الموت بغتة فأهلكه، كم ناظر إلى يوم صومه بعين الأمل، طمسها بالممات كف الأجل! كم طامع أن يلقاه بين أترابه[2]، ألقاه الموت في عُقْرِ ترابه![3].

---

(١) «التبصرة» (٢/ ٢١٦).

(٢) أي: يستقبل يوم الصوم وهو بين أمثاله من أصحابه وإخوانه.

(٣) «التبصرة» (٢/ ٨٣).

تيقظ يا غافل

تيقظ يا غافل وانهض ببِدارك، فمالُك لأهلك وأنت ضيف بدارِك، واستدرك قديمك وأصلح بالتقى حديثك، وامنع لسانك اللغو واجعل الذكر حديثك، وصحح بمجانبة الهوى إيمانك ويقينك، وتدرع كلماتي هذه في حرب الغرور يقينك[1].

إلى متى في حب البطالة منكمش! وبلذات الكسل جذلان دَهِش! وإذا فات الهوى بت من الحزن ترتعش، أما رأيت ذا مال وأمل لم يعش! أما شَغَلك الموتُ عن زخرف قد نُقِش، أما تعلم أنك للموت في القبر تفترش! أما تحذر يومًا لا تجد الماء من العطش، عجبًا لموقن بالقيامة لم يَجُعْ ولم يعطَش[2]!

قصر بدنياك الأمل

مَنْ تفكر في العِبر، ونظر في الغِيَر[3]، علم أن الآدمي يفنى ببقائه، ويسقم بسلامته، ويؤتى من مأمنه، وما اجتمع لأحدٍ أمَلُه إلا أسرع في تفريقه أجَلُه، ومن تصور رحيلَه اختار غير اختياره اليوم، ومَنْ بَعُدَتْ هِمَّتُه لم يرض بدون[4]، ومَنِ استشعر الحساب تنغصت لَذَّتُه، ومَنْ أصغى إلى هاتف الإنذار سمع صوتَ المؤَذِّن بالرحيل، ومَنْ زار القبور بفكره، علم ما ندموا على فعله،

(١) أي: يحفظنك.

(٢) «التبصرة» (٢/ ٨٢).

(٣) غِيَر الدهر: أحواله وأحداثه المتغيرة.

(٤) الدُّون: الخسيس الحقير.

وتأسفوا على فَوْته، وتيقنَ أنه غدًا عندهم.

قَصِّـــر بدنيــاك الأمـــل مــن قبــل إدراك الأجــل
فلَــتَرْحَلَنَّ كمثــل مَــنْ قــد كــان قبلــك وارتحــل
واحــذر وقوفــك في غــدٍ عنـد الحسـاب مِـن الخجـل
وقــد اعترفــت بــها اقترفْــ ــتَ مـن الخطايـا والزلـل
فــإلى متــى هــذا الفتــو ر وذا التــواني والكســل[1]

قاطعوا الكسل

إخواني، انتبهوا من رَقَدَات الأغمار[2]، وانتهبوا لحظات الأعمار، وقاطعوا الكسل فقد قطع الأعذار.

العمر يسير وهو يسير، فأقصروا عن التقصير في العمر القصير.

حِذارِ حِذارِ قبل عَدَم الفِرار، أيها الشيوخ آن الحصاد، أيها الكهول قرب الجِذَاذ[3]، أيها الشباب كم جَرّد الزرعَ جَراد.

وحـــدثتك الليـــالي أن شِـــيمتَها تفريــقُ مــا جمعتَــه فاســمع الخَــبَرا
وكن على حَذَرٍ منها فقد نَصَحَتْ وانظر إليها ترى في صَرْفها[4] العِبَرا

---

(١) «قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٤٦)

(٢) مفرد غَمْر وغَمَر، وهو الرجل الذي لم يجرب الأمور.

(٣) جَذّ النخل جَذًّا وجِذاذًا: قطع ثمره وجناه. والمعنى: أيها الشيوخ، قد دنا حصادكم وقرب رحيلكم وأوشك إلى الأجداث انتقالكم.

(٤) أي: في نوائبها.

فهل رأيت جديدًا لم يَعُـدْ خَلَقًا[١]   وهل سمعتَ بصَفْوٍ لم يَصِرْ كَـدَرا[٢]

يا مفتونًا بحب الهوى

يا مفتونًا بحب الهوى، يا من كلما ترقّى عن الحضيض هوى، يا من إذا قُوِّم بالزجر التوى، يا مريضًا قد يئس منه الدوا، لقد خاب من باع باقيًا بفان، وخطر في ثوبَي غافل متوان، وسها عن أمر قريب دان[٣].

﴿إن عذاب ربك لواقع﴾

بعت نفسك في سوق الهوان، وضيّعتَ في التواني كل الزمان، ونسيت أنك كما تدين تدان، ودعاك إلى مراضيه الشيطان، فأقبلت تتابع، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الطور: ٧].

العمر يوم فبادر الشمس، واستدركْ ما فات بالأمس، وانتظر ساعة الغمس في الرمس[٤]، واعلم أن أيام العافية خوادع، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

خُذ حِذرك فإنك مطلوب، استلبْ زمانك يا مسلوب، اسمع كلام الرب يا من هو مربوب، تالله لقد ملأ القلوب قبل المسامع، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

---

(١) أي: باليًا.

(٢) «قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٥٣).

(٣) «قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٩٠).

(٤) أي: القبر.

تيقظْ لنفسك فإلى كم نوم؟ الْحَقِ الصالحين فقد سبق القوم، عاتب نفسك وبالغ في اللوم، فبين يديك يوم يذهل فيه الشافع، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

يحضر فيه جميع الخلق، وتَلقى فيه ما لم تلق، ويقع بين الصالحين والطالحين الفَرْق، ويتسع الخرق على الراقع، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾.

أفينفع حينئذ طلب الرضا؟ بعد أن جرى بالعقاب القضا، هيهات إذا فات الأمر انقضى، وليس ما مضى براجع، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾[1].

إلامَ هذا التكاسل والفتور

لقد وَعَظَتْك الدهور، بمرور الأيام والشهور، ورأيت الحزن عُقَيْبَ السرور، وعلمت أن الزمان بأهله عَثُور، وتيقنت أن آخر الأمر القبور، وستخرج من القصور على القصور[2]، فإلامَ هذا التكاسل والفتور؟! كم خَفَتْ في الأرض بُدُور! وكم خَلَتْ من أهاليها دُور! أَعَمِيَتِ العيونُ أم هي عُور؟! ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

احذر من الدنيا، حُسْنُ الدنيا زُور، إنها لتُوَدِّعُ مِنْ أول ما تَزُور، إنما هي قَنْطَرة للعبور، ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥، والحديد: ٢٠][3].

(١) «قرة العيون المبصرة» (٢/ ١٨٥-١٨٦).

(٢) الأول: جمع مفرده قَصْر، وهو معروف. والثانية: مفرد معناه: العجز والفشل وعدم الإصابة.

(٣) «قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٣٩).

الوقت سيف

أنـــت في دنيــاك ضــيف　　والتـــواني منـــك حَيْــف
مَـــرّ بـــالقَرّ شـــتاء　　وأتـــى بـــالحرّ صـــيف
خـاسرٌ مـن نَقْـدُه حيـــ　　ــن تقـوم السـوق زَيْـف
فـــاغتنم أجـــرًا وذكـــرًا　　حَسَـنًا فالوقـت سـيف[1]

يا غافلاً عن النعم

يا غافلًا عن النِّعَم، زاحمت بالغفلة النَّعَم[2]، ما تعرف من الطعام إلا الأكل، ولا من الماء إلا الشرب، وتتكاسل عن لفظ الحمد، ثم تنفق النِّعم على معاصي المنعِم.

يا عديم العقل وليس بمجنون، يا راقدًا في غفلته وليس بنائم، يا ميتًا في حياته وليس بمقبور، افتح بصر البصيرة ترى العجائب، وإن ترقيت بفهمك علمت أن ما بين يديك[3] أعجب، وإنما هذه الدار كالمكتب، يخرج منه الصبيان من حاذق ومن غافل لم يتعلم.

المــوتُ فـي كل حينٍ يَنشرُ الكَفَنا　　ونحــن في غفلــةٍ عــما يــراد بنــا
لا تطمـــئنّ إلى الـــدنيا وزُخْرُفهـــا　　ولـو توشـحتَ مـن أثوابهـا الحَسَـنا

---

(١) «قرة العيون المبصرة» (٢/ ٦٨).

(٢) مفرد أنعام، وأكثر ما يقع على الإبل.

(٣) أي: أمامك، يعني: أمر الآخرة.

أيـن الأحبـةُ والجـيرانُ مـا فعلـوا　　　أيـن الـذين هـم كـانوا لنـا سَـكَنا
سـقاهم الـدهر كأسًـا غـير صـافيةٍ　　　فصـيرتْهم لأطبـاق الثَّـرى رَهَنـا[1]

إلى متى هذا التواني وقد قرب الرحيل

إخواني، إلى متى هذه الغفلة وقد علمتم المصير؟! إلى متى هذه الآمال والعمر قصير؟! إلى متى هذا الحجاب والأمر خطير؟! إلى متى هذا التسويف فقد خذلكم التقصير؟! إلى متى هذا العمى عن التحقيق والناقد بصير؟! إلى متى هذا التواني وقد قرب الرحيل إلى الحفير؟! إلى متى هذه القسوة ولا مُعين ولا نصير؟!

كأنك بالموت قد أزعجك وهالك، فنازلك وأنزلك عن عِزِّك وأزالك، وألحقك بأمك وأبيك لا أبا لك، وقد بقي القليل فاعقل حالك، واصْحُ من سكرتك وأطع عُذّالك، واعتذر إلى مولاك وقد أقالك، واسمع نصح شَفِيقٍ يَرْثي لك.

خـذ الوقـت واعلـم بـأن اللبيـ　　　ـب يأخـذ مـن يومـه للغـدِ
فـما ينفـع المـرءَ بعـد المنـو　　　نِ قـولُ النـوادب لا تُبْعِـدِ

إخواني، أهل القبور قد أُسِرُوا، وأكثر القوم في تجارتهم قد خَسروا، مُرُّوا على القوم واعتبروا، وتفكروا في أحوالهم وانتظروا، يتمنون العَوْدَ وهيهات! ويسألون البِدار وقد فات.

---

(١) «قرة العيون المبصرة» (٢/ ٩٥-٩٦).

فيا مُطْلَقًا اذكر قيودهم، ويا متحركًا قد عرفتَ هُمودَهم، خَلِّص نفسك من أسر الذنوب، وتأهّب فإنك مطلوب، وتذكر بقلبك يومَ تُقَلَّبُ القلوب، قبل أن يُمْسِك اللسان، ويتحيرَ الإنسان، ويزولَ العرفان، وتُنْشَرَ الأكفان، وتُزَارَ الحُفْرة، وتَطُولَ السَّفْرة، ويأتيَ منكرٌ ونكير، ويقوى الشهيقُ والزفير، ويَبْقى العبدُ هناك أسيرًا، إلى أن يقوم عُرْيَانًا حسيرًا.

فحينئذٍ تنتثر الكواكب، وتنتشر المصائب، وتنسد المذاهب، وتتبيّن العجائب، وتسودّ الوجوه، ويفوت العاصي ما يرجوه، وتُنْقَل على الظهور الأوزار، ويؤخذ الكتابُ باليمين أو باليسار، وليس لأحد هناك قرار، إلا الجنة أو النار[1].

يا زارع التفريط

يا مشغولًا عن طريقهم بالمال الذي جَمَع، يا مَنْ لاحت له مَحَجَّةُ الهدى فلما رأى رَجَع، يا مَنْ ناطقتْه العِبَر وحادثته الفِكَر وما انتفع، يا زارع التفريط سيَحصُد الزارعُ ما زَرَع، يا طويل الأمل تأمّل رفيقك ماذا صنع؟! اغتنم حياتك فإنما الحياة كبَرْقٍ لَمَع[2].

يا مدعوًّا إلى نجاته وهو يتوانى

يا مدعوًّا إلى نجاته وهو يتوانى، ما هذا الفتور والرحيل قد تدانى؟ يا مقبلًا على هفواته لا يألو بهتانًا، كأنك بالدمع يجري عند

---

(١) «قرة العيون المبصرة» (٢/ ٢٦١-٢٦٢).

(٢) «قرة العيون المبصرة» (٢/ ١٥١).

الموت تَهْتَانًا [1]، وشغل التلف قد أوقد من شُعَل الأسف نيرانًا، وأنت تبكي تفريطك حتى لقد أقرحت أجفانًا.

احذر زلل قدمك، وخف حلول ندمك، واغتنم وجودك قبل عدمك، واقبل نصحي ولا تخاطر بدمك.

إذا مـــا نهـــاك امـــرؤٌ ناصـــحٌ ... عـــن الفاحشـــات انزجِـــرْ وانْتَـــهِ
وإمـــــا علـــــوتَ إلى رتبـــــةٍ ... فكـــــن حَـــذِرًا بعـــدها أنْ تَهِـــي
وإمـــا تـــرى مهجـــةً في الثَّـــرى ... فـــلا تَغْـــتَرِرْ بالـــمُنى أنـــتَ هِـــي [2]

يا مقهوراً بغلبة النفس

اسمع يا من قد ضَيَّق على نفسه الخناق في فعل المعاصي، فما أبقى لعذر موضعًا، يا مقهورًا بغلبة النفس صُلْ عليها بسوط العزم، فإنها إن علمت جِدَّك استأسرت لك، امنعها ملذوذ مباحها ليقع الصلح على ترك الحرام[3]، فإذا ضجت لطلب المباح ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد: ٤].

الدنيا والشيطان خارجيّان، خارجان عليك خارجان عنك، فالنفس عدو مباطن، ومن آداب الجهاد: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ليس من بارز بالمحاربة كَمَنْ كَمَنَ، ما دامت النفس حية تسعى، فهي

(١) هَتَنَ الدمع: قطر، فهو هاتن. والتَّهْتَان: مطر أو دمع ـ كما هنا ـ يَفْتُر ثم يعود.

(٢) «المدهش» (ص ٢٦٣).

(٣) مَنْعُ النفس مما أحل الله تعالى لها لا يشرع، وأما منعها من الفضول ومما لا يعني ومن الإسراف فنعم.

حية[1] تسعى، أقل فعلٍ لها تمزيق العمر بكف التبذير، كالخرقاء وجدت صوفًا[2]، اخل بها في بيت الفكر ساعة، وانظر، هل هي معك أو عليك؟ نادها بلسان التذكرة، يا نفس ذهب عرش بلقيس، وبلي جمال شيرين، وتمزق فرش بوران، وبقي نسك رابعة، يا نفس صابري عطش الهجير يحصل الصوم، وتحزمي تحزم الأجير فإنما هو يوم:

جِـدَّ في الجِـدِّ قـد تـولى العمـر ... كـم ذا التفـريط قـد تـدانى الأمـر
أقبـل فعسـى يُقبـل منـك العـذر ... كم تبني وكم تنقض كم ذا الغدر[3]

لله در العارفين بزمانهم

فكـم هـذا التصـامم والتعـامي ... وكـم هـذا التغافـل والتـواني
لـو أنـا قـد فهمنـا عـن خـراب ... الـديار مقالهـا لم يَـبْنِ بـانِ
ويجنـي العـيشُ كـل أذى ويُهْـوَى ... فيـا للعـيش يُعْشَـقُ وهـو جـانِ
فللـه الأُولى درجـوا جميعًـا ... وزادُهـم النجـاءُ مـن الهـوانِ
ومـا عَلِقُـوا مـن الدنيـا بشـيءٍ ... سـوى بُلَـغٍ بـأطراف البنـانِ

لله در العارفين بزمانهم، إذ باعوا ما شانَهم بإصلاح شانِهم، ما أقلَّ ما

---

(١) أي: أفعى، والأولى: من الحياة.

(٢) مثل يضرب للذي يفسد ماله. قال العسكري: «خرقاء وجدت صوفًا. قالوا: هي امرأة من قريش وجدت صوفًا؛ أي: ثَلَّةً ومالًا، فأفسدت فيه، وهي التي يقال لها: أخسر من الناقضة غزلها». «مجمع الأمثال».

(٣) «المدهش» (ص ١٦٠-١٦١).

تعبوا وما أيسرَ ما نصبوا! وما زالوا حتى نالوا ما طلبوا، شمَّروا عن سوق الجِدِّ في سوق العزائم، ورأوا مطلوبهم دون غيره ضربة لازم، وأصبحوا [في] منزل النجاة وأنت في اللهو نايم، متى تسلك طريقهم يا ذا المآثم؟ متى تندب الذنوب ندب المآتم؟ يا رجالًا ما بانت رجوليتهم إلا بالعمايم، يا إخوان الأمل قد بقي القليل وتفنى المواسم، أين أنت من القوم؟ ما قاعد كقائم[1].

أما تعلم ما أمامك

يا عجبا! أما تعلم ما أمامك؟ فتهيأ للرحيل وأصلح خيامك، وتأهب للردى واقطع قطع الـمُدى[2] مدامك، واجتهد أن يَنْشُر الإخلاصُ في المحل الأعلى أعلامَك، وأحضر قلبك وسمعك وإن ملا من لامك، وإياك والفتور فإني أرى الدواء دوامك، اطلب ما شئت بالعزم وأنا زعيم لك بالظفر، من عزم على أمر هيأ آلاته، لما كان شغل الغراب الندب على الأحباب لبس السواد قبل النَّوح[3].

يا غافلاً عن مصيره

يا غافلًا عن مصيره، يا واقفًا في تقصيره، سبقك أهل العزائم، وأنت في اليقظة نائم، قف على الباب وقوف نادم، ونكِّس رأس الذل وقل: أنا ظالم،

(١) «المدهش» (ص ١٧٠).

(٢) المدى: بالضم والكسر، مفردها: مدية بالضم والكسر، وهي السكين. والـمَدام: الخمر.

(٣) «المدهش» (ص ١٩٨-١٩٩).

وناد في الأسحار مذنب وواجم[1]، وتشبه بالقوم وإن لم تكن منهم وزاحم، وابعث بريح الزفرات سحاب دمع ساجم، قم في الدجى نادبًا، وقف على الباب تائبًا، واستدرك من العمر ذاهبًا، ودع اللهو والهوى جانبًا[2].

يا أبناء الدنيا

يا أبناء الدنيا، إنها مذمومة في كل شريعة، والولد عند الفقهاء يتبع الأم، يا من هو في حديثها أنطق من سَحبان[3]، وفي انتقاد الدنانير أنسب من دَغْفَل[4]، فإذا ذكرت الآخرة فأبله من باقل[5]، حيلتك في تحصيلها أدق من الشَّعَر، وأنت في تدبيرها أصنع من النحل، وعَيْن حرصك عليها أبصر من العُقاب، وبطن أملك أعطش من الرمل، وفم شَرَهك أشرب من الهِيم، تجمع فيها الدُّرّ جمع الذَّرّ، يا رفيقًا في البَلَه لدود القز، ما انتفعت بموهبة العقل:

كَدُودٌ كدُودِ القَزِّ ينسج دائمًا ... ويهلك غمًّا وسط ما هو ناسجه

ويحك! إن سرورها أقتل من السم، وإن شرورها أكثر من النمل، إنها في قلبك أعز من النفس، وستصير عند الموت أهون من الأرض، حرصك بعد الشيب أحر من الجمر، أبقي عمر؟ يا أبرد من الثلج! يا من هو عن نجاته أنوم

(١) الواجم: الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام.

(٢) «المدهش» (ص ٢٣٢).

(٣) سَحبان وائل، يُضرب به المثل في البلاغة والخطابة والفصاحة.

(٤) هو دَغْفَلُ بن حنظلة النسّابة.

(٥) رجل من إياد يُضرب به المثل في العِيّ، فيقال: «أعيا من باقل».

من فهد، ضيّعت عمرًا أنفس من الدر، أنت في الشر أجرى من جواد، وفي الخير أبطأ من أعرج، تسعى إلى العاجل سعي رُخٍّ، وتمشي في الآجل مشي فِرزان[١].

الزكاة عليك أثقل من أحُد، والصلاة عندك كنقل صخر على ظهر، وطريق المسجد في حسبان كسلك كفَرْسَخي دَيْر كعب، صدرك عن حديث الدنيا أوسع من البحر، ووقت العبادة أضيق من تسعين[٢].

معاصيك أشهر من الشمس، وتوبتك أخفى من السُّهَا[٣]، إن عرضت خطيئة وثبت وثوب النَّمِر، فإذا لاحت طاعة رغت رَوَغان الثعلب، تقدم على الظلم إقدام السبع، وتخطف الأمانة اختطاف الحِدَأة[٤].

يا أظلم من الجُلُنْدَى[٥] ما تأمنك غزلان الحرم، يا كنعان الأمل، يا نمرود الحيل، يا نُعمان الزلل، أنت في حب المال شبه الحُبَاحِب[٦]، وفي تبذير العمر رفيق حاتم، تمشي في الأمل على طريق أشعب، وستندم ندامة الكُسَعِي[٧].

يا عذري الهوى في حب الدنيا، يا كوفي الفقه في تحصيلها، يا بصري الزهد في طلب الآخرة، إنما يُتْعَب في تعليم البازيّ ليصيد ما له قَدْر، ولما تَعَلَّمَ

---

(١) الفِرزان: من أحجار الشطرنج، وهو يقابل الملك، ومشيه في الرقعة خطوة واحدة. والرخ: من أحجار الشطرنج أيضًا، وهو يقفز في الرقعة خطوات.

(٢) عقد التسعين: أن تجعل أنمل السبابة في أصل الإبهام.

(٣) السها: كوكب خفي يمتحن الناسُ به أبصارَهم.

(٤) الحِدَأَة: طائر يَصيد الجِرْذان.

(٥) من ملوك عُمان، على ما قيل، يضرب به المثل في الظلم.

(٦) رجل عُرِف بشدة البخل.

(٧) رجل يضرب به المثل في الندامة. راجع ذلك في «اللسان».

بازيُّ فكرِك أرسلتَه على الجِيَف![1].

لو عاينت قصر أجلك

يا هذا، لو عاينت قِصَرَ أجلك لزهِدْتَ في طول أملك، وليقتلنك ندمُك إن زلت بك قدمُك.

للمتنبي:

إلى كـم ذا التــواني في التــواني[2] ... وكـم هـذا الـتمادي في الـتمادي
ومـا مـاضي الشباب بمسـتـردٍّ ... ولا يــومٌ يَمُـــرُّ بمستعـــادِ
متى لحظتْ بياضَ الشيب عيني ... فقـد وجدتْـه منهـا في الســوادِ
متى ما ازددتُ من بَعد التناهي ... فقـد وقـع انتقـاصي فـي ازديـادِ

كم غرت الدنيا فرخها فعَرَّتْ، ثم ذبحتْه بمُدية ما مَرَّت، إنها لتقتل صيادَها، وتقتل أولادَها.

والله لو كنت من رياشها أكسى من الكعبة، لم تخرج منها إلا أعرى من الحجر الأسود[3].

من اجتهد وجد وجد

للمهيار:

خـــاطرْ فإمـــا عيشـــةٌ حـــرةٌ ... يُرغِـــدُها العـــزُّ وإمـــا الحِـــمامْ

(١) «المدهش» (ص ٢٦٠-٢٦١).

(٢) في «ديوانه»: «إلى كم ذا التخلف والتواني».

(٣) «المدهش» (ص ٢٦٢-٢٦٣).

زاحمْ على باب العلى واجتهد لا بد أن تدخل بين الزِّحامْ
من طلب الغايةَ خُطُوًّا على ظهر الهوينى رامَ صعبَ المرامْ

لقد رضيتَ الغَبْنَ والغَبَنَ[1]، وبعت عمرك بأقل ثمن، وأنفقت فيما يرديك الزمَن، وفترت في الصحة ولا فتور الزمِن، يا مغروراً بخضراء الدِّمَن، يا جامعًا مانعًا قل لي: لمن؟ كيف ينال الفضائل مستريح البدن، سِلَع المعالي غاليات الثمن، وإن ساومتها فبزهد أويس وفقه الحسن[2].

ألا يندم من يعلم عواقب الكسل

ألا يعتبر المقيم منكم بمن رحل؟ ألا يندم من يعلم عواقب الكسل؟ آهٍ لغافل كلما جد الموت هزل، ولعاقل كلما صعد العمر نزل.

إخواني، بادروا آجالكم، وحاذروا آمالكم، أما لكم عبرة فيمن مضى؟ أما لكم؟ ما هذا الغرور الذي قد أمالكم؟ ستَتْرُكون على رغم آمالكم ما لكم.

إخواني، صدّقتم الأمل فكذبكم، وأطعتم الهوى فعذبكم، أما أنذركم السقم بعد الصحة، والترحة بعد الفرحة؟

في كل يوم يموت من أشباحكم ما يكفي في نعي أرواحكم، ويحل بعقوقكم وفنائكم ما يخبركم عن شتاتكم وفنائكم، فخذوا حذركم قبل النوائب، فقد أُتيتم من كل جانب، وتذكروا سهر أهل النار في النار، واحذروا

(١) الغَبْن بالتسكين: في البيع، والغَبَن بالتحريك: في الرأي.
(٢) «المدهش» (ص ٣٠٤).

فوت دار الأبرار، وتخوفوا يوم الفصل بين الفريقين أن يصيبكم من البَيْنِ البَيْنُ[1].

يا من تحصى عليه اللفظة والنظرة

يا من تحصى عليه اللفظة والنظرة، مزِّق بيد الجِدِّ أثواب الفترة، وتأهب فما تدري السير عِشاء أو بكرة، واعتبر بالقرباء فالعِبرة تبعث العَبرة، وتزود لسفرةٍ ما مثلها سفرة، واقنع باليسير فالحساب عسير على الذَّرّة، وإياك والحرام وانظر من أين الكسرة؟ قبل أن تَلقى ساعةَ حسرة، وتُلقى بعدها في ظلمة حفرة[2].

يا من قد ملكته نفسه

يا من قد ملكتْه نفسُه، وغلبه حسه، وقد دنا حبسه، وستُكَفُّ خَمْسُه، ولقد أنذره جنسه، عاتب نفسك لعلها ترعوي، وسلمها إلى رائض العلم عساها تستوي، [أحْضِرْها] دستور المحاسبة وحاسبها، واندُبها إلى الخير فإن أبت فاندُبها[3].

[لابن الجوزي]:

يــا ويــح نفــسٍ رضــيَت بالســقم   وفرَّطَـــتْ في عمـــرٍ منصرـــمِ

(١) «المدهش» (ص ٢٨٥-٢٨٦).

(٢) «المدهش» (ص ٢٨٩).

(٣) الأولى بمعنى: ادعُها وحثَّها، والثانية بمعنى: ابك عليها، كما يُندب الميت؛ أي: يُبكى عليه.

تسَــتّر بــاللهو وتنســى حتفهــا ... وتــؤثر البعــدَ عــلى التقــدُّمِ
وكلّـما أصـبحتُ أبكـي فعلَـها ... أضــحت عنــاداً لي في تبســمِ
تفـرح بالفـاني فـما تطلــب مــا ... يبقـى لهـا فمـن يكـون حكمـي
أقـول يـا نفس اتقـي مـن لـم يـزل ... معروفُــهُ يفــوقُ وكــف الــدِّيَمِ
كـم مـن ذنـوب لـك قـد سترهـا ... وعــاد بالفضــل وبالتكــرمِ
وكـم لـه مـن نعـمة جـاد بهـا ... وكـم وكـم أولاك طِيـب أنعـمِ
كـم واعـظ في كـل يـوم زاجـر ... وكــم نــذير زائــر مسلــمِّ
وكــم ينــاديك لســان عبــرةٍ ... وأنـت عـن قـول الهـدى في صممِ
أيـن الـذين شـيّدوا واحترسـوا ... وأيــن مــن كــان كثـير النعـمِ
مضى الجميع هـل تـرى مـن أثـرٍ ... لهـم وصـاروا في بيـوت الظُّلَـمِ
تبـدلوا بـالتِرب تُربًـا كـلهـم ... في قعــر لحـدٍ ضـيِّقٍ منهـدمِ
تفصـلت عظـامهم وحصلــت ... أعمالُهــم وأصــبحوا كـالعــدمِ
وبــاشروا الــتراب بعــد تــرفٍ ... وشــرف وحجــب وخــدمِ
وســـرر ودرر وطُـــرف ... وتحـــف وصـــولة وكـــرمِ
ولـــذة فـــي شهـــوة لـــذيذة ... وعــزة فــي عــزمة وهمــمِ
لـو قيـل قولـوا مـا مناكمُ طلبـوا ... حيـاة يـوم ليتوبـوا فاعلـمِ
ويحــك يــا نفــسُ ألا تيقــظ ... ينفــع قبــل أن تــزلَّ قدمــي
مضى الزمـان في تـوان وهـوى ... فاستدركي مـا قـد بقـي واغتنمـي
انتظـري المـوت سـيأتي بغـتة ... وأنــت بــين أســفٍ ونــدمِ

حــــرق وفـــــرق وحســـــــرة وفــيض دمــع العــين في تسجــمِ

وتـرحلـــين عــــن ديــار إلـــفةٍ فــانتبهي مـــن رقـــدات النُّـــوَّمِ

مـــن لي إذا نزلــت لحــداً مظلــماً هــذا وكـم مـن نـازلٍ لـم يسلـمِ

مــن لي إذا قــرأت مــا أمـليتــه أقــبح مســطور جـرى بالـقلـمِ

مــن لي إذا أزعــج قلبــي حســرةٌ وهــل تـرى يشـفي بفـوزي ألمـي

كيف الخلاص والكتاب قد حوى كـــلَّ فعـــالي وجميـــع كـلمــــي

يـا نفـس فـاز الصـالحون بالتقـى فأبصر-وا الرشـد وقلبي قـد عمي

يـا حسـنهم والليـل قـد جنَّهـم ونـــورُهم يفــوق نــورَ الأنـجــمِ

ترنَّمـــوا في الـــذكر في لـيلهـــم فعيشــهم قــد طــاب بـالـترنُّــمِ

قلــوبهم للــذكر قــد تفـرَّغــتْ دمــــوعهم كلؤلــــؤ منـتظــــمِ

أسـحارهم بهـم لهـم قـد أشرقـت وخُلَـعُ الغفـران خـير الـقسـمِ

ســـاروا وعـــدت عــــن طريــق دلَّ عـــلى الرّشـــد دليـل العـلــمِ

دعنــي أبكــي مــا حــييت أبــداً فحـــق لي أبكـــي فـــلا لا تـلـــمِ

يا عجبا لك! تتسمى باسم تاجر، وتخاصم على الدرهم وتشاجر، وتصابر لربح القيراط الهواجر، وتغضب لأجل الحبة وتهاجر، وترضى بأفعالك باسم فاجر، أما لك من عقلك ناهٍ ولا زاجر؟ يا من نومه كثير وانتباهه نادر، إن دُعِيتَ إلى التوبة سوَّفتَها، وإن قمتَ إلى الصلاة سففتها، وإن لاح وجهُ الدنيا ترشفتها، أما هي دار بلغة لضيفها تضيفتها؟ أو ليس قد شبت وما عرفتها؟ كم بادية في أرباح غير بادية تعسفتها؟ لقد استشعرت محبتها إي

والله والتحفتها، تالله لو علمت جناياتها لعفتها، أنسيت تلك الذنوب التي أسلفتها؟ آهٍ لبضائع عمرٍ بذَّرْتَ فيها وأتلفتها، كم تَعِدُ بالإنابة؟ وكل الوعود أخلفتها[1].

كم صاح بك واعظ

كم صاحَ بك واعظٌ وما تسمع! وكم حصّلت ما يكفي وما تقنع! لقد استقرضك مولاك مالك فما لك تجمع؟ وضَمِنَ أنّ نَبْتَ الحبة سبع مائة وما تزرع! تشتغل عن القرآن المنزَّل وتستمع من مغنٍّ يتغزل! تمشي إلى نجاتك مشي أَقْزَل[2]! وتخرج إلى الحرب وأنت أعزل! ويحك! إن والي الحياة عن قليلٍ يُعْزَل، كأنك بالسماء تمور وبالأرض تزلزل، وتنصب [الموازين] ولا تدري أي الكفتين أنزل![3].

يا صاحب الخطايا لست معنا

يا صاحب الخطايا لست معنا، يا مقبلًا على الهوى ما أنت عندنا، ضاعت حيلي في تحصيل قلبك، اشتدت حيرتي في تلافي أمرك، وا عجبا! أخوِّفُك عواقب الأمور وما تتوب، وأشرح لك أحوال الصالحين وما تؤوب، ومتى سقطت شهوة العليل دنا الموت، قد أوقدتُ نار المواعظ إلى جانب كسلِك ونَفَسُ عزيمتك شديد البرودة، وقد اتفق الأطباء على أن النَّفَس البارد في

(١) «المدهش» (ص ٥١٣-٥١٤).

(٢) أي: مشي مقطوع الرِّجل.

(٣) «المدهش» (ص ٥٣٧).

المرض الحاد دليل الهلاك:

المـوت فـي كل حين يَنْشُـرُ الكَفَنَا ونحــن في غفلــة عــما يــراد بنـــا
كــأن مــا قــد رأينـا في أحبتنـــا من الرحيل ونأي الدار لـيس لنا(١)

اسمعوا وصيتي

يا معاشر المذنبين، اسمعوا وصيتي، إذا قمتم من المجلس فادخلوا دار الخلوة، وشاوروا نصيح الفكر، وحاسبوا شريك الخيانة، وتلمحوا تفريط التواني في بضاعة العمر، ويكفي ما قد مضى فليحذر الأعور الحجر.

إذا نَقِيَ خاطر الـمُذَكِّر من ذل هوى، وصَفى مَعين معنى كلامه من كدر طمع، انكشف الغشاء عن عينه فرأى بالفطنة موضع قطنة مرهم العافية، فربَّى حشائش الحِكَم، وركَّب فيها معاجين الشفاء، ففتحت سُدَد الكسل، واستفرغت أخلاط الشواغل، فأما مجتلب الدنيا بنطقه، فإنه كلما حفر قليب قلبه فأمعن لاستنباط معنى طَمّ الطمع، إذا صدر العلم من عامل به كان كالعربية ينطق بها البدوي، وأحلى أبيات الشِّعْر ما خرج عن أبيات الشَّعَر(٢).

وصايا لابن الوردي

كُتِبَ المـوتُ عـلى الخلـق فكَـمْ فَـلَّ مـن جَمْـعٍ وأفنـى مـن دُوَلْ
أيــن نُمــرودُ وكَنعــانُ ومَــنْ ملـــك الأمـــر وولَّى وعَـــزَلْ

---

(١) «المدهش» (ص ٥٤١).

(٢) «المدهش» (ص ٤٦٠).

أيــن عــادٌ أيــن فرعــونُ ومَــنْ ... رفـع الأهــرام مـن يســمع يَخَـلْ

أيـن مـن سـادوا وشـادوا وبَنَـوْا ... هلــك الكــل ولم تغــنِ القُلَــلْ

أيـن أربـابُ الحِجـى أهـلُ النُّهـى ... أيـن أهـل العلـم والقـوم الأُوَلْ

ســيعيد اللَّـــهُ كـــلًّا مـــنهمُ ... وسـيجزي فـاعلًا مـا قـد فَعَـلْ

يـا بُنَـيَّ اسـمع وصـايا جَمَعَـتْ ... حِكَـمًا خُـصَّتْ بهـا خـيرُ المِلَـلْ

اطلـبِ العلـمَ ولا تكسـلْ فـما ... أبعـدَ الخـير عـلى أهـل الكَسَـلْ

واهجـرِ النـومَ وحَصِّـلْهُ فمَـنْ ... يَعـرفِ المطلـوبَ يَحقِـرْ مـا بَـذَلْ

لا تقـل قـد ذهبـتْ أربابُـهُ ... كلُّ مـن سـار عـلى الـدرب وَصَـلْ

في ازديـاد العلـم إرغـامُ العِـدا ... وجمـالُ العلـمِ إصـلاحُ العَمَـلْ(١)

* * * * *

(١) وللأبيات بقية، فليراجعها من شاء.

الباب الثالث

في علاج الكسل وطرق التغلب عليه

العلـم

قال ابن القيم[1]: «إن أعظم الأسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة، ولذة النعيم في الدارين، ويدخل عليه عدوه منها، هو الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء، وهما من عدم العلم.

أما الغفلة: فمضادة للعلم منافية له، وقد ذم سبحانه أهلها، ونهى عن الكون منهم، وعن طاعتهم والقبول منهم.

وأما الكسل: فيتولد عنه الإضاعة والتفريط والحرمان وأشد الندامة، وهو مناف للإرادة والعزيمة التي هي ثمرة العلم، فان من علم أن كماله ونعيمه في شيء طلبه بجهده وعزم عليه بقلبه كله، فإن كل أحد يسعى في تكميل نفسه ولذته، ولكن أكثرهم أخطأ الطريق لعدم علمه بما ينبغي أن يطلبه، فالإرادة مسبوقة بالعلم والتصور، فتخلفها في الغالب إنما يكون لتخلف العلم والإدراك، وإلا فمع العلم التام بأن سعادة العبد في هذا المطلب ونجاته وفوزه كيف يلحقه كسل في النهوض إليه؟!

ولهذا استعاذ النبي ﷺ من الكسل[2]».

---

(١) انظر «مفتاح دار السعادة» (١/ ١١٢-١١٥).

(٢) راجع ما تقدم (صفحة ١٣، وما بعدها).

إلى أن قال: «والمقصود أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم، فعاد النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة، والكمال كله إلى العلم والعزيمة.

والناس في هذا على أربعة أضرب:

الضرب الأول: من رُزِق علمًا وأُعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل، وهذا الضرب خلاصة الخلق، وهم الموصوفون في القرآن بقوله:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥، ومواضع أخرى كثيرة].

وقوله: ﴿ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [صٓ: ٤٥].

وبقوله: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[الأنعام: ١٢٢].

فبالحياة تُنال العزيمة، وبالنور يُنال العلم.

وأئمة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل.

الضرب الثاني: من حُرِم هذا وهذا، وهم الموصوفون بقوله:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

وبقوله: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وبقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل: ٨٠].

وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢].

وهذا الصنف شر البرية، ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة، وجلهم إذا فكرت فهم حمير أو كلاب أو ذئاب، وصدق البحتري في قوله:

لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم إلا هذه الصور

وقال الآخر:

لا تخدعنك اللِّحى والصور تسعة أعشار من ترى بقر

في شجر السرو منهم مثَل لها رَواء وما لها ثمر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ ﴾[المنافقون: ٤].

عالمهم كما قيل فيه:

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيِّدها إلا كعلم الأباعرِ

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائرِ

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

الضرب الثالث: من فُتِح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل، فهذا في رتبة الجاهل أو شر منه، فهذا جهله كان خيرًا له وأخف لعذابه من علمه، فما زاده العلم إلا وبالًا وعذابًا، وهذا لا مطمع في صلاحه، فإن التائه عن الطريق يرجى له العَود إليها إذا أبصرها، فإذا عرفها وحاد عنها عمدًا

فمتى ترجى هدايته؟!

قال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

الضرب الرابع: من رُزِق حظًّا من العزيمة والإرادة، ولكن قلَّ نصيبه من العلم والمعرفة، فهذا إذا وُفِّقَ له الاقتداءُ بداعٍ من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

رزقنا الله من فضله، ولا حرمنا بسوء أعمالنا، إنه غفور رحيم».

صدق العزم وصدق الفعل

قال ابن القيم(١): «ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه وفي فعله، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: ٢١].

فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوّم، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه.

(١) «الفوائد» (ص ٢٤١-٢٤٢).

فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور.

ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره.

وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل، فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله».

وقال ابن سعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: ٢٠ - ٢١].

«أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويُجْمِعُوا عليه هممهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه.

﴿**فإذا عزم الأمر**﴾؛ أي: جاءهم أمر جِدٌّ، وأمر محتم، ففي هذه الحال ﴿**لو صدقوا الله**﴾ بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿**لكان خيرًا لهم**﴾ من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل ضعف عن العمل بوظيفة وقته الحاضر وبوظيفة المستقبل، أما الحاضر فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل فإنه لا يجيء حتى تفتر الهمة عن نشاطها فلا

يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمِّل للآمال المستقبلة مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يُخذل ولا يقوم بما همّ به ووطّن نفسه عليه.

فالذي ينبغي أن يَجمع العبدُ همَّه وفكره ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعينًا بربه في ذلك، فهذا حري بالتوفيق والتسديد في جميع أموره».

ومن درر كلام ابن الجوزي[1]: «يا مقهورًا بغلبة النفس، صُلْ عليها بسوط العزيمة، فإنها إن عرفت جِدَّك استأسرت لك، وامنعها ملذوذ مباحها[2] ليقع الاصطلاح على ترك الحرام، فإذا صبرت على ترك المباح ﴿**فإما منًّا بعد وإما فداء**﴾.

الدنيا والشيطان خارجيان عنك، والنفس عدو مباطن، ومن أدب الجهاد ﴿**قاتلوا الذين يلونكم**﴾.

إن مالت إلى الشهوات فألجمها بلجام التقوى، وإن أعرضت عن الطاعات فسُقْها بسوط المجاهدة، وإن استحلَتْ شراب التواني واستحسنت ثوب البطالة فصِحْ عليها بصوت العزم، فإن رَمَقَتْ نفسَها بعين العُجْب

(١) «اللطف في الوعظ» (ص ١٧).

(٢) يعني: الفضول والإسراف وما لا يعني، أما أن يحرَّم الحلال فلا.

فذَكِّرْها خساسة الأصل، فإنك والله ما لم تجد مرارة الدواء في حلقك لم تقدر على ذرة من العافية في بدنك.

قد اجتمعت عندك جنود الهوى في بيت النَفْس، فأحكمت حِصْنَ البطالة، فيا حزب التقى تسلحوا بسلاح العزائم وادخلوا عليها الباب».

ومن ذلك(١): «ويحك! بين العجز والتواني نُتِجَت الفاقة، كان القوم إذا سمعوا موعظة غرست لهم نخلة العزائم، ونبات قلبك عند المواعظ نبات الكُشْنَى(٢).

أنت والكسل كندمانَي جَذِيمة(٣)، وليت صوت هذا الهاتف وصل إلى سمع القلب، يا له من عِتاب لو كان للمعاتَب فهم، لقد نفختُ لو كان فحم، وا أسفا! مَرْعى ولا أكولة، سُور تقواك كثير الثلم، والأعداء قد أحاطوا بالبلد».

ومنها(٤): «الفترة حيض الطباع، ووقوع العزيمة رؤية النقاء، فحينئذ يتوجه الخطاب بالتوجه إلى محراب الجِدّ».

ومنها(٥): «إخواني، أين عزائم الرجال؟ أين صرائم الأبطال؟

تُدعى وتتوانى! هذا كله محال، إن هممتَ فبادر، وإن عزمتَ فثابر،

---

(١) «اللطف في الوعظ» (ص ٧٢).

(٢) نبت صغير. قيل: هو الكِرْسِنَّة.

(٣) راجع (صفحة ٥٧).

(٤) «المدهش» (ص ٢٤١).

(٥) «المواعظ والمجالس» (ص ٥٣).

واعلم أنه لا يُدرك المفاخر مَنْ رضي بالصف الآخِر.

فلا تحسبوا أن المعالي رخيصةٌ ولا أنّ إدراك العُـلا هَيِّنٌ سهلُ
فما كلُّ مَنْ قد حاولَ العِزَّ نالَه ولا كلُّ من يهوى العلا نفسه تعلو

يا هذا، ركائب الرحيل قد أُنيخت بالجناب ولم تتحرج، كيف يلحق السابقين كسلانُ أعرج، ما يُحَصِّل بردَ العيش إلا مَنْ يدخل بحر التعب».

ومنها[1]: «يا هذا، سبقك أهل العزائم وأنت في الغفلة نائم، لقد بعت المعالي بالكسل، وآثرت البطالة على العمل، أزعج ذكر القيامة قلوب الخائفين، وقلقل خوف العتاب أفئدة العارفين، فاشتغلوا عن طعام الطَّغام[2]، ومال بهم حذر الباس عن تَنَوُّقِ[3] اللِّباس».

ومنها[4]: «عزيمتك للتوبة عزيمة بازي[5]، وعند عَقْد العهد تَفِرُّ فِرار رَخَمَة[6].

تنقُضُ عزيمةَ العزم بالتسويف كالتي نقضت غزلها».

ومنها[7]: إلى متى تتعثر في ظلمة البعاد؟ عِدْ نفسك بتوبةٍ واعزم وقد

---

(١) «التبصرة» (١/ ٢١٠).

(٢) أراذل الناس وأوغادهم.

(٣) أي: المبالغة في تحسينه وتجويده.

(٤) «روح الأرواح» (ص ١٠٣).

(٥) البازي والباز: ضرب من الصقور يُستخدم في الصيد.

(٦) طائر موصوف بالغدر. والمعنى: أنه كلما عزم على عَقْد عهدِ التوبة انهزم وغدر.

(٧) «المنثور» (ص ٨٨).

حَصَّلْتَها.

وَعَـدْتَ نفسَـكَ توبـةً اعـزم وقـد حَصَّـلْتَها

وقيل[1]:

كـم ذا التلـوّم لا إقـلاع يصـحبه ولا عزيمـةً هـذا العجـز والكسـلُ
وكـــم أُرَدِّدُ أقـــوالًا ملفقـــةً ما ينفع القـولُ إن لم يَصدُقِ العمـلُ

ولابن حمديس:

ولـي عَزمـةٌ لم تَبِـعْ فـي السُّرَى نشـاطَ السُّـهادِ بنـومِ الكسـلْ

الحرص على الخير والاستعانة بالله تعالى

ومن علاج الكسل: الحرص على الخير، والاستعانة بالله تبارك اسمه، وقسر النفس على ترك العجز[2].

وقال ابن الجوزي لابنه وهو يعظه[3]: «متى رأيت في نفسك عجزًا فسل المنعم، أو كسلًا فالجأ إلى الموفِّق، فلن تنال خيرًا إلا بطاعته، ولا يفوتك خير إلا بمعصيته، فمن الذي أقبل عليه فلم يَرِدْ كل مراد؟ ومن الذي أعرض عنه فمضى بفائدة، أو حظي بغرض من أغراضه؟» اهـ.

ومن الأدعية الجامعة المناسبة في باب الاستعانة بالله على الخيرات: ما

(١) «بحر الدموع» (ص ٧٨).

(٢) انظر ما تقدم (صفحة ٣٢، وما بعدها).

(٣) «لفتة الكبد» (ص ٢٧).

رواه أبو عبد الرحمن الحُبُلي، عن الصُّنَابِحي، عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال:

«يَا مُعَاذُ، وَاللَّـهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّـهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فقال:

«أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

وأوصى بذلك معاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وأوصى به الصُّنَابِحِيُّ أبا عبد الرحمن(١).

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«أَتُحِبُّونَ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؟ قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ وَذِكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(٢).

الاستعاذة بالله من الكسل

ومن علاجه: ما تقدم(٣) من الاستعاذة بالله عز وجل من الكسل والإكثار من ذلك، وهو من أعظم العلاج، والمعاذ من أعاذه الله تعالى.

الإكثار من ذكر الله عز وجل

ومن أعظم علاج الكسل في جميع الأمور: الإكثار من ذكر الله عز وجل، فالذكر يعين على شرائع الإسلام، ويسهل ما شَقَّ على العبد من مصالح الدنيا

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٩) وغيره، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٥٤٤).

(٣) (صفحة ١٣-٢١).

والدين(١)، فعن عبد الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه، أن أعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ: إن شرائع الإسلام قد كَثُرَتْ عليَّ، فأنبئني منها بشيء أتشبث به، قال:

«لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٢).

قال في «تحفة الأحوذي»(٣): «(أتشبث به)؛ أي: أتعلق به وأستمسك، ولم يُرِدْ أنه يترك شرائع الإسلام رأسًا، بل طلب ما يتشبث به بعد الفرائض عن سائر ما لم يُفترض عليه. قاله الطِّيبي.

(قال: لا يزال)؛ أي: هو أنه لا يزال (لسانك رطبًا من ذكر الله)؛ أي طريًّا مشتغلًا قريبَ العهد منه، وهو كناية عن المداومة على الذكر».

قال ابن القيم(٤): «فدَلَّه الناصحُ على شيء يعينه على شرائع الإسلام والحرص عليها والاستكثار منها، فإنه إذا اتخذ ذكر الله تعالى شعاره أحبه وأحب ما يحب، فلا شيء أحب إليه من التقرب بشرائع الإسلام، فدله على ما يتمكن به من شرائع الإسلام وتسهُل به عليه، وهو ذكر الله عز وجل، يوضحه:

أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها إلى العبد، ويسهلها عليه، ويلذذها له، ويجعل قرة عينه فيها ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة

---

(١) راجع الفصل (صفحة ١١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٣) (٩/ ٣١٥).

(٤) «الوابل الصيب» (ص ٩٦-٩٧).

بذلك» اهـ.

ومن الأذكار المهمة في هذا الباب، والتي قد يغفل عنها كثير من الناس قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

قال ابن الأثير[1]: «الـمَعْنِيّ بهذا اللفظ: إظهار الفقر إلى الله تعالى بطلب المعونة على ما يزاوله من الأمور».

وقال شيخ الإسلام[2]: «هذه الكلمة بها تُحمل الأثقال، وتُكابد الأهوال، ويُنال رفيع الأحوال».

وقال تلميذه الهمام[3]: «هذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال الصعبة، وتحمُّل المشاقّ، والدخول على الملوك ومَنْ يُخاف، وركوب الأهوال».

المحافظة على صلاة الليل

ومن علاجه: المداومة على صلاة الليل، ولو صلى الرجل ركعتين لم يزد عليهما لكان ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ كافيًا في طرد الكسل، فلا يستخفن بها، وليحث أهل بيته عليها، وقد جاء في الحديث، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:

«مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا مِنَ

(١) «جامع الأصول» (٤/ ٣٩٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٣٧).

(٣) «الوابل الصيب» (ص ٩٨).

الذَّاكِرِينَ اللَّـهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»[١].

وراجع ما تقدم من الأحاديث في هذا الباب[٢]، وقد تعمدت أن أجعل الأحاديث الواردة في ذم الكسل وعلاجه وما تعلق به مجموعة في أول الكتاب، ولم أشأ تفريقها تسهيلًا للمنتفع في تناولها والاستفادة منها، وكلما احتجت إلى الاستشهاد بشيء منها حوّلت على موضعه، فليعلم.

الخوف والحذر

ومن علاج الكسل والفتور: الخوف والحذر، وقد قال النبي ﷺ: « مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْـمَنْزِلَ» الحديث[٣].

فمن خاف الوقوع في الورطات والمكاره والأسباب المؤدية إليها، وخاف فوات المحبوبات والفرص المواتية لها، سار على عجل، وتنشط وترك الكسل، ولم يدَع للعجز والتواني عليه سبيلًا، كالمسافر إذا خاف فوت المقصود أو الانقطاع عن الرفقة أو خاف عدوًّا من قاطع طريق أو غيره، فإنه ـ ولا بد ـ يَجِدّ في السير ولا يفتر، فكيف بمن دنا رحيله وأوشك انتقاله ولم يتزود بعد لطول الطريق وبعد الشُّقة؟! فكيف إذا كان سفره إلى وطن لا وطن بعده ولا رجوع منه؟!

قال ابن الجوزي[٤]: الخوف سوط يساق به المتواني.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٥١) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) (صفحة ٢٥، وما بعدها).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠)، والحاكم (٤/ ٦٠٨)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) «الطب الروحاني» (ص ٤٨).

ومن مواعظه[1]: «ويحك! قد دنا رحيلك وليس في مزود عملك تمرات تطفئ نار جوعك، ولا في مزادتك قطرات تُسَكِّن وَقْدَ هجيرك، فالجِدَّ الجِدَّ في الاستظهار لطول الطريق، [سِرْ] ولا تفتر».

ومنها[2]: «إخواني، ذهب والله في التفريط العمر، غفل الوصيّ فضيّع مال الطفل. مصيبتنا في التفريط واحدة، وكل غريب للغريب نسيب.

رحل ركب المحبة في ظلام الدجى، فصبّح القوم المنزل ونحن على غير الطريق.

وا أسفا من قلة الأسف! وا حزنا على عدم الحزن! قفوا على آثار السالكين واندبوا المنقطع».

ومنها[3]: «يا مبارزًا [مولاه] بالذنوب خذ حِذرك، وتَوَقَّ عقابه بالتقى فقد أنذرك، وخَلِّ الهوى فإنه كما ترى صيّرك، قبل أن يغضب الإله ويُضَيِّق حَبْسَه، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾[آل عمران: ٢٨ و٣٠].

اجتهد في تقوية يقينك قبل خُسْرِ موازينك، وقم بتضرعك وخيفتك قبل نشر دواوينك، وابذل قواك في ضعفك ولينك، قبل أن يدنو العذاب فتجد مَسَّه، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾.

لما سمع المتيقظون هذا التحذير فتحوا أبواب القلوب لنزول الخوف،

---

(١) «اللطف في الوعظ» (ص ٧٢).

(٢) «اللطف في الوعظ» (ص ٧٨).

(٣) «التبصرة» (١/ ٧٤).

فأحزن[1] الأبدان وقلقل الأرواح، فعاشت اليقظة بموت الهوى، وارتفعت الغفلة بحلول الهيبة، وانهزم الكسل بجيش الحذر، فتهذبت الجوارح من الزلل، والعزائم من الخلل، فلا سكون للخائف، ولا قرار للعارف.

كلما ذكر العارف تقصيرَه ندم على مصابه، وإذا تصوَّر مصيره حذِر مما في كتابه، وإذا خطر العتاب بفِنائه فالموت من عتابه، فهو رهين القلق بمجموع أسبابه».

ومنها[2]: يا من يبارز مولاه بما يكره، ويخالفه في أمره آمنًا مَكْرَهُ، ويُنْعِم عليه وهو ينسى شكره، والرحيل قد دنا وما له فيه فكرة، يا من قبائحه ترفع عشيًّا وبكرة، يا قليل الزاد ما أطول السفرة! والنقلة قد دنت والمصير الحفرة، متى تعمل في قلبك المواعظ؟ متى تراقب العواقب وتلاحظ؟ أما تحذر مَنْ أوعدَ وهدّد؟ أما تخاف مَنْ أنذر وشدّد؟ متى تضطرم نار الخوف في قلبك وتتوقد؟ إلى متى بين القصور والتواني تتردد؟ متى تحذر يومًا فيه الجلود تشهد؟ متى تترك ما يفنى رغبة فيما لا ينفد؟ متى تهب بك ريح الخوف كأنك غصن يَتَأَوَّد[3]؟ البِدار البِدار إلى الفضائل، والحِذار الحِذار من الرذائل، فإنما هي أيام قلائل.

اغتنم في الفراغ فضل ركوع ... فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح رأيتَ من غير سُقم ... ذهبت نفسه السليمة فلتة

*****

(١) كذا هي في المطبوع! والحزن إنما يكون للقلوب لا للأبدان.
(٢) «التبصرة» (١/ ٩٧-٩٨).
(٣) أي: يتثنى.

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله إذا كنت فارغًا مستريحًا
وإذا ما هممت أن تفعل البا طل فاجعل مكانه تسبيحًا

يا سكران الهوى وإلى الآن ما صحا، يا مفنيًا زمانه الشريف لهوًا ومرحًا، يا معرضًا عن لوم من لام وعتب من لحَا، متى يعود هذا الفاسد مُصْلَحًا؟ متى يرجع هذا الهالك مُفْلِحًا؟ لقد أتعبتَ النصحاءَ الفصحاء.

أما وُعِظْتَ بما يكفي؟ أما رأيت من العبرة ما يشفي؟ فانظر لنفسك قبل أن يعمى الناظر، وتفكر في أمرك بالقلب الحاضر، ولا تساكن الفتور فإنك إلى مسكن القبور صائر، فالحي للممات، والجمع للشتات، والأمر ظاهر.

عاصِ الهوى إن الهوى مَرْكَبٌ يصعُب بعد اللِّين منه الذليلُ
إن يَجْلِبِ اليومَ الهوى لذةً ففي غدٍ منه البكا والعويلُ
ما بين ما يُحْمَدُ فيه وما يدعو إليه الذمَّ إلا القليلُ

ولبهاء الدين الرواس:

وخَفْ من الله بِقَلْبٍ خاشعٍ فإنَّما الخَوفُ بهِ يُنْفى الكَسَلْ

ذكر الموت والبلى

ومن علاجه: ذكر الموت وغصته وكربه وشدته، وعذاب القبر وفتنته وضيقه وظلمته، وحسرة فوات الدنيا، وهول ما هو قادم عليه، فإن في ذكر ذلك ـ كما قيل[1]ـ لتنبيهًا من الغفلة، وتنشيطًا من الكسل، وحلًّا من عقال

(١) انظر «العاقبة في ذكر الموت» (ص ٣٥٣).

البطالة، وصرفًا عن اللذات، وردعًا عن نيل الشهوات، بل فيه ما يذهل النفوس ويرعد القلوب، ويوجب ـ ولا بد ـ قصرَ الأمل الموجبَ لدفع الكسل.

قال ابن حجر: «يتولد من طول الأمل الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب، لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكير الموت والقبر والثواب والعقاب وأهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[الحديد: ١٦]. وقيل: من قصر أمله قَلّ همه ورضي بالقليل».

ترك الشبع وفضول الطعام

ومن علاجه: ترك الشِّبَع وفضول الطعام، فإنه ـ كما قال ابن القيم[(١)]: «يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شرًّا، فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام! وكم من طاعة حال دونها! فمن وُقِيَ شر بطنه فقد وُقِيَ شرًّا عظيمًا».

قال: «ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز وجل لكفى به شرًّا، فإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان، ووَعَدَه ومنّاه وشهّاه، وهام به في كل واد، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت».

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٧٣).

وذكر السُّلَمي في «عيوب النفس»[1] الكسلَ ثم قال: «وهو ميراث الشِّبَع، فإن النفس إذا شبعت قويت، فإذا قويت أخذت بحظها وغلبت القلب بوصلها إلى حظها، ومداواتها: التجويع، فإنها إذا جاعت عدمت حظها وضعفت، فغلب عليها القلب، فإذا غلب عليها حملها على الطاعة وأسقط عنها الكسل، ولذلك قال النبي ﷺ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[2].

قال في «تحفة الأحوذي»[3]: «(ما ملأ آدمي وعاء)؛ أي: ظرفًا، (شرًّا من بطن)؛ صفة وعاء، جعل البطن أولًا وعاء كالأوعية التي تُتَّخَذ ظروفًا لحوائج البيت توهينًا لشأنه، ثم جعله شر الأوعية لأنها استُعملت فيما هي له، والبطن خُلق لأن يتقوم به الصُّلب بالطعام وامتلاؤه يفضي إلى الفساد في الدين والدنيا فيكون شرًّا منها.

قال: «وقوله: (بحسب ابن آدم أُكُلات)؛ الأُكْلة: اللقمة؛ أي: يكفيه هذا القدر في سد الرمق وإمساك القوة.

قوله: (فإن كان لا محالة)؛ أي: إن كان لا بد من التجاوز عما ذكر فلتكن أثلاثًا». اهـ. مختصرًا.

(تنبيه): اعلم أن الجوع غير محمود إلا ما كان منه شرعيًّا، ونتج عن

---

(١) (ص ١٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) وغيره، وقال: «حسن صحيح». وصححه الألباني.

(٣) (٧/ ٥١).

الاكتفاء بلقيمات يقمن الصلب، أو عن ترك إعطاء البطن أكثر من الثلث ـ كما تقدم، أو عن الصيام، أو نتج عن الإيثار ونحوه، وما سوى ذلك فإنه يستعاذ بالله عز وجل منه فضلًا عن أن يكون محمودًا، كما ثبت عن النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ»[(١)].

(تنبيه): ومما يجلب الكسل مثله مثل الشِّبَع ـ بل أعظم: كثرة الجماع واستخراج المني، فإنه يضعف البدن، ويثقل الجوارح، ويؤدي إلى الخمول والكسل، هذا شيء معروف لا يخفى.

قال ابن القيم[(٢)]: «أربعة توهن البدن»، وذكر منها كثرة الجماع.

وقال جالينوس[(٣)]: «صاحب الجماع يقتبس من نار الحياة، فليكثر منه أو يقلل».

الرياضة

وينبغي لمن أراد التخلص من الكسل أن يعوِّد نفسه في بعض النهار على المشي والحركة والرياضة، فإن هذا يطرد الكسل عن الجسد وينشطه، وقد لهج أهل هذا الزمان من أطباء وغيرهم ـ خصوصًا في دول الغرب ـ بالتأكيد على

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٤٧) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ٤٠٩).

(٣) «محاضرات الأدباء».

المشي وبيان حاجة الجسم إليه، في الوقت الذي أصبحت فيه الأمراض لا تعد ولا تحصى، واعتبروه ـ أعني المشي ـ رياضة العصر.

وقد سبقناهم إلى ذلك ولله الحمد والمنة ، فما أن نأتمر بأمر ربنا عز وجل وننتهي عن نهيه، ونأخذ بهدي رسوله ﷺ، إلا وقد أتينا على أسباب الصحة والعافية، والمنافع الجسدية والنفسية، وما لا يخطر ببالهم من خير الدنيا وأسباب النجح فيها[1]، والآخرة بعد ذلك خير وأبقى، في نعيم لا بؤس معه، وخلود لا موت فيه، ثياب لا تبلى، وشباب لا يفنى، كما بشر بذلك النبي ﷺ بقوله:

«يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»[2].

وقال ﷺ: «مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ»[3].

---

(١) وقد بين العلماء منافع الصلاة والصوم والحج والجهاد وغيرها مما لا مجال لذكره هنا.

ومما يتكرر في حق الرجال خمس مرات في اليوم والليلة المشي إلى صلاة الجماعة، وقد نادى النبي ﷺ بذكر فضائله على رؤوس الأشهاد، وأبدأ في ذلك وأعاد، فليحرص العبد على مطالعة ما دوِّن من ذلك في كتب السنة، وبخاصة الأحاديث المجموعة في باب الترغيب والترهيب.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٧) وغيره.

(٣) بعض حديث، أخرجه الترمذي (٢٥٢٥)، وهو في «صحيح الجامع» (٣١١١). وهو في «صحيح مسلم» (٢٨٣٦) بلفظ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ».

قطع التعلق بالأماني

ومن علاج الكسل: قطع التعلق بالأماني الباطلة والآمال الكاذبة.

قال يحيى بن معاذ[١]: لا يزال العبد مقرونًا بالتواني ما دام مقيمًا على وعد الأماني.

ومن حكم ابن الجوزي[٢]: «من التوفيق رفض الأماني، ومن الخذلان مسامرة الأماني».

ولله در أبي تمام إذ يقول:

مَنْ كان مرعى عزمه وهمومه ... روض الأماني لم يزل مهمومًا

وقال ابن القيم[٣]: «أخس الناس همة وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه، وتَحَلَّى بها، وهي لعمر الله رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، وهي أضر شيء على الإنسان، وتتولد من العجز والكسل، وتولِّد التفريط والإضاعة والحسرة والندامة».

وقال[٤]: «الأماني الباطلة هي رؤوس أموال المفاليس، بها يقطعون

---

(١) «تاريخ بغداد» (٥/ ١٨٤).

(٢) «التبصرة» (٢/ ١٦٩).

(٣) «الجواب الكافي» (ص ١٠٧).

(٤) انظر «مدارج السالكين» (٣/ ٩٤).

أوقاتهم، ويلتذون بها كالتذاذ من زال عقله بالمسكر، أو بالخيالات الباطلة، ولا يرضى بالأماني عن الحقائق إلا ذوو النفوس الدنيئة الساقطة، كما قيل:

واترك منى النفس لا تحسبْه يُشْبِعها   إن المنى رأسُ أموال المفاليس

وأمنيّة الرجل تدل على علو همته وخستها».

وقال ـ وهو يَعُدّ مفسدات القلب: «ركوبه بحر التمني: وهو بحر لا ساحل له، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل:

إن المنى رأس أموال المفاليس

وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان، وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة والخيالات الباطلة تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية، ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية، بل اعتاضت عنها بالأماني الذهنية، وكل بحسب حاله من متمنٍّ للقدرة والسلطان، وللضرب في الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان، فيمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه، وقد فاز بوصلها والتذ بالظفر بها، فبينا هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير.

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان والعمل الذي يقربه إلى الله ويدنيه من جواره، فأماني هذا إيمان ونور وحكمة، وأماني أولئك خدع وغرور».

(فائدة) في الفرق بين التمني والرجاء: قال ابن القيم[1]: «الفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز، والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء».

إلى أن قال: «وأما الأماني فإنها رؤوس أموال المفاليس، أخرَجوها في قالب الرجاء، وتلك أمانيهم، وهي تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس فأظلم من دخانها، فهو يستعمل قلبه في شهواتها، وكلما فعل ذلك منَّتْه حسنَ العاقبة والنجاة وأحالته على العفو والمغفرة والفضل، وأن الكريم لا يستوفي حقه، ولا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، ويُسَمِّي ذلك رجاء، وإنما هو وساوس وأماني باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل فيستريح إليها، قال تعالى:

﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ [النساء: ١٢٣].

فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته ولم يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا، وإذا ترك ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصارا

(١) انظر «الروح» (ص ٣٣١-٣٣٤).

ولبين له، ووُكِل إلى نفسه، فصار انتصاره لها بدلًا من نصرة الله ورسوله، فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه وبنصرته نصرة نفسه وهواه، فلم يدع للرجاء موضعًا، فإذا قالت لك النفس: أنا في مقام الرجاء فطالبها بالبرهان، وقل: هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، فالكيِّس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء، والأحمق العاجز يعطل أعمال البر ويتكل على الأماني التي يسميها رجاء، والله الموفق».

وقال ابن سعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾: «في هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل، وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتمنّ وغرور، وهو دال على ضعف همة صاحبه، ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك».

(فائدة أخرى): الخواطر هي أصل الأماني، فمن قطع خواطره في البداية نجا من آثارها السيئة في النهاية. قال ابن القيم ـ وهو يذكر الأمور التي تقوِّي باعث الدين: «(الثاني عشر): كف الباطن عن حديث النفس، وإذا مَرَّتْ به الخواطر نفاها ولا يؤويها ويساكنها، فإنها تصير أماني، وهي رؤوس أموال المفاليس، ومتى ساكن الخواطر صارت أماني، ثم تقوى فتصير همومًا، ثم تقوى فتصير إرادات، ثم تقوى فتصير عزمًا يقترن به المراد، فدَفْعُ الخاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته».

الصبر والعزم

ومن علاج الكسل: الصبر[1] والعزم على مواجهة الصعاب، فمن حبس نفسه على مطلوبه وعما يضاده ناله بإذن الله تعالى، «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ»[2]، ومن عَوَّد نفسه الصبر وطُول النَّفَس أوشك أن يصير ذلك في حقه ملكة، وما من أمر ذي قدر إلا ويحتاج في الوصول إليه إلى الصبر، والصبر وإنْ كان أَوَّلُه مُرَّ المذاق فثمرته لا أحلى منها.

وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣، والأنفال: ٤٦].

وقال النبي ﷺ: «النَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ» الحديث[3].

وعن مالك بن دينار قال: ما من أعمال البر شيء إلا ودونه عقبة، فإن صبر صاحبها أفضت به إلى رَوْح، وإن جزع رجع[4].

وقال خالد بن صفوان[5]: مفتاح نُجْح الحاجة الصبر على طول المدة، ومغلاقها اعتراض الكسل دونها.

ولابن حبيب[6]:

واصبر فإن الصبر في الدنيا إلى ... نيل المنى والقصد نعم المنهج

---

(١) قال ابن القيم («عدة الصابرين» - ص ٣٥): «الصبر عن داعي العجز والكسل يُسمَّى كَيْسًا».

(٢) كما ثبت عن النبي ﷺ، فيما أخرجه البخاري (١٤٦٩ و٦٤٧٠)، واللفظ له، ومسلم (١٠٥٣)، وغيرهما.

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (١٠/ ٢٨٧) وغيره، وهو في «الصحيحة» (رقم ٢٣٨٢).

(٤) «الطب الروحاني» (ص ٥١).

(٥) «العقد الفريد».

(٦) «الأرج في الفرج» (ص ١١٤).

ولغيره[1]:

إذا ما توالت شدة فاصطبر لها   فخير سلاح المرء في الشدة الصبر

ومن الحكم الجوزية: «ألا يصبر طائر الهوى عن حبة مجهولة العاقبة؟[2]، وإنما هي ساعة ويصل إلى برج أمنه وفيه حبات»[3].

ومنها[4]: «قف على باب الصبر ساعة وقد رُكِّبَ على قفل العسر مفتاحُ الفرج».

ومنها[5]: يا هذا، عليك بالجد والاجتهاد، وخَلِّ هذا الكسل والرقاد، فطريقك لا بد لها من زاد.

انهـــض إلى المعـــالي   واطلـــب ولا تبـــالي
وخـــذ مـــن الزمـــانِ   حظًّـــا فأنـــت فـــاني
الهمـــــم العَلِيَّـــــة   والـــمُهَجُ الأبيّـــة
تقـــــرِّب المنيـــــة   منـــك أو الأمنيّـــة
المجـــد بالمخـــاطرة   والنصرــ بالمصـــابرة
كـم راحـة في العزلـة   وعمـــل في العطلـــة
لـــيس يـــدوم حـــالُ   شـــحم المنـــى هـــزالُ

(١) «الأرج في الفرج» (ص ٨٨).

(٢) فكيف إذا كانت الحبة معلومة العاقبة؛ من الندم والخسران والعذاب، إلا أن يشاء الله تعالى؟!

(٣) «المدهش» (ص ٤٧٤).

(٤) «التبصرة» (١/ ٤٣٧).

(٥) «التبصرة» (١/ ١٤٢).

مـا للـورى في غفلـة قـد خُـدِعُوا بالمهلـة
ألا لبيـــبٌ يعقـــلُ ألا جَهـــولٌ يَســـأَلُ
أأنـــتم في ريبـــة مـــا أعظـــم المصـــيبة
دنيـــاكمُ حبيبـــة لحســـنها والطِّيبـــة
لكنهـــا غـــدارة خداعـــة غَـــرّارة
لـــيس لهـــا حبيـــبُ زوالهـــا قريـــبُ
كـــالمومس البَغِـــيِّ تلـــبس كـــلَّ زِيِّ
خَلُوبَـــةٌ خوّانـــة لـــيس لهـــا أمانـــة
عزيزهـــا ذليـــلُ كثيرهـــا قليـــلُ
تُفَـــرِّقُ الأحبابـــا تُـــشَتِّتُ الأترابـــا
حَـرْبٌ لمـن سالَـمها تَـمَلُّ مَـنْ لازمهـا
لقاؤهـــا فـــراق وعرســـها طـــلاق
وصـــالها صـــدودُ ووعـــدها وعيـــدُ
وصـــالُها عَنَـــا صـــدودها بَـــلَا
عقودهـــا منقوضـــة عهودهـــا مرفوضـــة
شرابهـــــا سرابُ نعيمهـــا عـــذابُ
إن أقبلـــت ففتنـــة أو أدبـــرت فمحنـــة
أخلاقهـــا مذمومـــة لـــذاتها مســـمومة
يحظـــى بهـــا الجهـــالُ ويـــنعم الأنـــذالُ

يشــقى بهــا اللبيــبُ ويتعـــب الأريـــبُ
فخــلِّ عنهــا يــا فتــى إلى متـــى إلى متـــى

ولأحمد محرم:

لا شيءَ يُعجِـــزُ آمـــالَ النُّفـــوسِ إذا
خَلَتْ من الضَّعفِ واسْتَعصتْ عـلى الكسـلِ

ولغيره:

خــاطر بنفســك لا تقنــع بمَعْجَــزَةٍ فلــيس حــرٌّ عــلى عجــز بمعــذورِ

معرفة عاقبة الكسل وعاقبة الجد والنشاط

ومن علاجه: أن يعلم المتكاسل أن عاقبة الكسل الحرمان والندم، وعاقبة الجد والنشاط الفوز وحصول المراد، وإنما يُفَرَّق بين العاقل وغيره بالنظر في العواقب والتطلع إليها.

واللبيب لا يطلب الراحة قبل أن يَنال مراده ويحقق مطلبه، ويعلم أن المطالب العالية تأبى أن تُنال إلا بالجد والمثابرة، بل إنه ليجد لذته ولهوه في تعبه وكده من أجل مطلوبه ومقصوده.

وما أوجب الكسلَ لصاحبه إلا إرادته للراحة قبل تحقيق المكاسب، وهذه الراحة ـ لو تأملت ـ قرين البطالة، والراحة الحقيقية ما ذكرنا.

قال ابن الجوزي[1]: «الموجب للكسل: حب الراحة، وإيثار البطالة،

(١) «الطب الروحاني» (ص ٥١).

وصعوبة المشاق».

وللبحتري[1] يصف ممدوحه:

قلبٌ يُطِلُّ على أفكاره ويَدٌ ... تُمضي الأمورَ ونَفْسٌ لَهْوُها التَّعَبُ

ومما ينسب لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: الراحة للرجال غفلة.

وقيل لبعض العُبّاد: إلى كم تُتعب نفسَك؟! فقال: راحتها أريد[2].

وقيل للإمام أحمد: متى يجد العبد طعم الراحة؟ قال: عند أول قدم يضعها في الجنة[3].

وقال ابن القيم[4]: «قد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مفتاحًا يفتح به، فجعل مفتاح الصلاة الطهور، ـ إلى أن قال: ـ وجعل الكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان».

وقال[5]: «إن للكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة، إما في الدنيا وإما في العقبى وإما فيهما، فأَرْوَح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أَرْوَح الناس، فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلا على جسر من التعب»[6].

---

(١) «ديوانه» (١/ ١٧٢).

(٢) «الفوائد» لابن القيم (ص ٤٢).

(٣) «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٩٣).

(٤) «حادي الأرواح» (ص ٤٩).

(٥) «تحفة المودود» (ص ٢٤١).

(٦) وانظر الفصل الآتي بعنوان: «تحريك الهمة».

وقال ابن الجوزي[1]: «الكسل عن الفضائل بئس الرفيق، وحب الراحة يورث من الندم ما يربو على كل لذة، فانتبه وأتعب نفسك».

وقال[2]: «ما يحصل بَرْدُ العيش إلا بحَرِّ التعب، ما العز إلا تحت ثوب الكَدِّ، على قدر الاجتهاد تعلو الرُتَب».

وقال[3]: لا يطمعن البطال في منازل الأبطال. إن لذة الراحة لا تنال بالراحة. من زرع حصد ومن جد وجد.

وكيف يُنال المجدُ والجسم وادعٌ[4] ... وكيف يُجاء الحمدُ والوَفْرُ وافرُ[5]

أي مطلوب نِيل من غير مشقة؟! وأي مرغوب لم تَبْعُد على طالبه الشُّقّة؟! المال لا يحصل إلا بالتعب، والعلم لا يُدْرَك إلا بالنصَب، واسم الجواد لا يناله بخيل، ولقب الشجاع لا يحصل إلا بعد تعب طويل.

لا يدرك المجدَ إلا سيدٌ فَطِنُ ... لما يَشُقُّ على السادات فَعّالُ

قلت: ولأبي الفتح البستي:

وهل سمِعْتَ بإنسانٍ جنى عَسَلًا ... يا سُخْنَةَ العَينِ من كُوّارَةِ الكَسَلِ

(فائدة): قال الماوردي: «اعلم أن للنفس حالتين: حالة استراحة إن

---

(١) «لفتة الكبد» (ص ٢٢).

(٢) «المدهش» (ص ١٧٥).

(٣) «التبصرة» (١/ ٣٩٣).

(٤) أي: ساكن.

(٥) الوفر: المال. والمعنى: وكيف يحصل الحمد والمال كثير لم يجُدْ به صاحبه؟!

حَرَمْتَها إياها كَلَّت، وحالة تَصَرُّف إن أرحتها فيها تَخَلَّتْ، فالأَولى بالإنسان تقدير حاليه: حال نومه ودَعَته، وحال تصرفه ويقظته، فإن لهما قدرًا محدودًا وزمانًا مخصوصًا، يضر بالنفس مجاوزة أحدهما، وتغير زمانهما».

قال: فإذا أعطى النفس حقها من النوم والدَّعة، واستوفى حقه بالتصرف واليقظة، خلص بالاستراحة من عجزها وكلالها، وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها.

وحكي أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه فوجده نائمًا فقال: يا أبت أتنام والناس بالباب؟ فقال: يا بني نفسي مطيتي، وأكره أن أتعبها فلا تقوم بي.

وينبغي أن يقسِم حالة تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته، فإن حاجة الإنسان لازمة، والزمان يقصر عن استيعاب المهم، فكيف به إن تجاوز إلى ما ليس بمهم؟! هل يكون إلا:

كتاركـــةٍ بيضَـــها بـــالعراءِ وَمُلْبِسَـةٍ بَيْضَ أخـرى جَناحًـا

وقال أبو حاتم[1]: «والعاقل يعلم أن العجز في الأمور يقوم في النقص مقام الإفراط في السعي، فيتجنبهما معًا، ويجعل لنفسه مسلكًا بينهما».

وانظر ما تقدم من الكلام على حديث: «لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً»[2].

---

(١) «روضة العقلاء» (ص ٢١٧).

(٢) (صفحة ٣١-٣٢).

ومن مواعظ ابن الجوزي في هذا المعنى[1]: «يا صبيان التوبة، ارفقوا بمطايا أبدانكم فقد أَلِفَتِ الترف، ﴿**ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن**﴾.

يا صبيان التوبة، للنفس حظ وعليها حق، ﴿**فلا تميلوا كل الميل**﴾.

خذوا ما لها، واستوفوا ما عليها، ﴿**وزنوا بالقسطاس المستقيم**﴾.

فإن رأيتم من النفوس فتورًا فاضربوهن بسوط الهجر، ﴿**فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا**﴾، على أني أوصي صبيان التوبة بالرفق، وبعيد أن يَقِرَّ خائف أو يسمع العذلَ مُحِبٌّ».

(فائدة) في الفرق بين الرفق والتواني: قال ابن القيم[2]: «الرفق شيء والتواني والكسل شيء، فإن المتواني يتثاقل عن مصلحته بعد إمكانها فيتقاعد عنها، والرفيق يتلطف في تحصيلها بحسب الإمكان مع المطاوعة».

الاقتداء بالنبي ﷺ

وأنجع العلاج في قطع الكسل وطرد الفتور: النظر في سيرة النبي ﷺ ومطالعة هديه، فإنه سيرى من جده واجتهاده ﷺ ما يدهش، وقد مَرّ شيء من ذلك في أول الكتاب.

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أَتَكَلَّفُ هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال:

---

(١) «المدهش» (ص ٣١٠).

(٢) «الروح» (ص ٢٣١).

«أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناس، وكان أَجْوَدَ الناس، وكان أشجعَ الناس، ولقد فَزِعَ أَهْلُ المدينة ذات ليلة، فانطلق ناسٌ قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسولُ الله ﷺ رَاجِعًا وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحةَ عُرْيٍ في عنقه السيف، وهو يقول:

«لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا». قال: «وَجَدْنَاهُ بَحْرًا[2] - أو: إِنَّهُ لَبَحْرٌ». قال: وكان فرَسًا يُبَطَّأُ[3].

مصاحبة العلماء العاملين

ومن أنفع العلاج أيضًا: مصاحبة من كان على هديه ﷺ من العلماء العاملين؛ أهل الجد والاجتهاد، والمحافظة على الأوقات، لا أولئك الكسالى الذين تعرفهم - وإن ادعوا السنة والاقتداء، وسماع الموعظة منهم، وأخذ الحكمة عنهم، ورؤية ما هم فيه من النشاط وعلو الهمة والمسابقة بالخيرات والمنافسة فيها، وما هم عليه من الزهد في الفاني ورفضه والأنفة منه، وهم العقلاء والسادة، فبهم فليقتد الموفق، وعلى دربهم فليسر العاقل.

قيل لأحدهم: ما الذي حبب إليك الخلوة، وطرد عنك الفَتْرة؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٨١٩)، وغيرهما.

(٢) يعني: الفرس؛ أي: إنه سريع الجري.

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٢٧) وفي مواضع أخرى، ومسلم (٢٣٠٧)، وغيرهما. وقوله: (وَكَانَ يُبَطَّأُ)؛ أي: يُعرف بالبطء، واسم هذا الفرس - كما في «الصحيحين»: «مندوب».

وثبة الأكياس من فخ الدنيا.

وقيل لآخر: لم تخليت عن الدنيا؟ فقال: خوفًا والله من الآخرة أن تتخلّى عني.

فإذا رأى العبد همة هؤلاء ونشاطهم ذهب كسله وزال فتوره، وغدا كمن فُكّ من عقال.

وإن عزّت رؤية أمثالهم ومجالسة أشباههم، فعلى الصادق أن يحرص على النظر في سِيَرهم والمطالعة لأحوالهم، وهي مدونة مكتوبة، فلا يَعْجَزَنّ المرء عن رؤيتها والاستفادة منها، ولا يُسَوِّفَنّ بذلك.

وفي «بحر الدموع»[1]: «يا هذا، إلى متى تسمعُ أخبارَهم ولا تقفو آثارهم، اطلب رفقة التائبين عساك لطريقهم تُرْشَد، اندب على بعادك يا مطرود، فمثلك من بكى وعدد، اعتذرْ يا مهجور، عساك بالذل تَسْعَدْ».

وليبتعد عن الكسالى والبطالين، وليحذر منهم كل الحذر، فإن صحبتهم خسران، ومجالستهم تضييع للزمان، وليُقْصِهم عن مجلسه، وليبعدهم عن جماعته، فإن التأثر بهم سريع، والعدوى بهم قريبة.

وقيل: «احذر مجالسة العاجز، فإنه من سكن إلى عاجز أعداه من عجزه، وأمده من جزعه، وعوّده قلة الصبر، ونسّاه ما في العواقب»[2].

وقال حكيم من اليونان لتلامذته[3]: «كونوا كالنحل في الخلايا، قالوا:

---

(١) (ص ٦٧).

(٢) «المستطرف».

(٣) «حياة الحيوان الكبرى».

وكيف النحل في الخلايا؟

قال: إنها لا تترك عندها بطّالًا إلا نَفَتْه وأبعدته، وأقصته عن الخلية، لأنه يُضَيِّق المكان، ويُفْني العسل، ويُعَلِّم النشيطَ الكسل».

وفي «المدهش»[1]: «يا زَمِن الهمة، يا مقعد العزيمة، يا عليل الفهم، يا بعيد الذهن، سار الـمُجِدُّون وتركوك، ونجا الـمُخِفُّون وخلَّفوك.

يا من أبعدته الخطايا عنهم، ادرج مرحلة الهوى وقد وصلت.

أنت تتعلل للكسل بالقدر فتقول: «لو وفقني»، ولكسب الشهوات بالندب إلى الحركة: ﴿**فامشوا في مناكبها**﴾.

أنت في طلب الدنيا قدري، وفي طلب الدين جبري، أي مذهب وافق غرضك تمذهبت به، أوَ ليس في الإجماع ﴿**من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها**﴾؟!».

وقال[2]: «العجب من مُؤْثِر البطالة في موسم الأرباح وتارك الاستلاب وقت النِّثار».

وذكر عن فرقد قال[3]: «إنكم لبستم ثياب الفراغ قبل العمل، ألم تروا إلى العامل إذا عمل كيف يلبس أدنى ثيابه، فإذا فرغ اغتسل ولبس ثوبين نقيين، وأنتم تلبسون ثياب الفراغ قبل العمل».

---

(١) انظر (ص ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) «الطب الروحاني» (ص ٥٢).

(٣) وانظر «حلية الأولياء» (٣/ ٤٧).

تحريك الهمة

ومن علاج الكسل ـ كما قال ابن الجوزي[1]: «تحريك الهمة بخوف فوات القصد، وبالوقوع في عقاب اللوم، أو بالحصول في بِيد التأسف، فإن أسف المفرط إذا عاين أجر المجتهد أعظم من كل عقاب.

وليفكر العاقل في سوء مغبة الكسل، فرب راحة أوجبت حسراتٍ وندمًا، ومن رأى جاره قد سافر ثم عاد بالأرباح زادت حسرة أسفه على لذة كسله أضعافًا، وكذلك إذا برع أحد الرفيقين في العلم وتكاسل الآخر.

والمقصود أن ألم الفوات يربو على لذة الكسل، وقد أجمع الحكماء على أن الحكمة لا تدرك بالراحة، فمن تلمح ثمرة الكسل اجتنبه، ومن مد فطنته إلى ثمرات الجد نسي مشاقّ الطريق.

ثم إن اللبيب يعلم أنه لم يخلق عبثًا، وإنما هو في الدنيا كالأجير أو كالتاجر.

ثم إن زمان العمل بالإضافة إلى مدة البقاء في القبر كلحظة، ثم إن إضافة ذلك إلى البقاء السرمدي إما في الجنة وإما في النار ليس بشيء».

وقال في «صيد الخاطر»: «وأي عيش لمن ساكن الكسل إذا رأى أقرانه قد برزوا في العلم وهو جاهل، أو استغنوا بالتجارة وهو فقير؟! فهل يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى؟!».

---

(١) «الطب الروحاني» (ص ٥٢).

فصل
في علاج الهمة الدنية

قال ابن الجوزي[1]: «إذا كانت الهمة الدنية طبعًا لم ينجع فيها العلاج، فإن كانت مكتسبة بصحبة الأدنياء أو لغلبة الطبع والهوى فعلاجها قريب، وذلك من وجوه:

منها: مقاطعة أهل الدناءة أنفة منهم ومواصلة أرباب الهمم العالية، ثم التفكر بالعواقب ومآل الدناءة ومصير أولي الجد والاجتهاد، ومن تفكر في المرتفعين في الهمم علم أنهم كهُوَ من حيث الأصلية والآدمية، غير أن حب البطالة والراحة جَنَيَا عليه فأوثقاه، فساروا وهو قاعد، ولو حرك قدم العزم لوصل، قال الشاعر:

إذا أعجبتك خصال امرئٍ ... فكُنْهُ تكن مثل ما أعجبك

فليس على الجود والمكرمات ... إذا جئتها حاجبًا يحجبك

ومن نظر في أخبار السلف رأى عموم الفقهاء والعلماء وأكثر المشار إليهم بذلك من الموالي ومن الضعفاء وأهل الحرف الدنية، إلا أن الهمم أَثَّرَتْ فأثارتْ عن موطن.

ولو تفكر أرباب الهمم الدنية في عواقبها وما يجيء عليهم لرأوا البطالة عدوًّا، وإنما صحبوا دناءة الهمة تعجلًا للراحة، وما يلقونه من الحسرات على فوت الفضائل والسقوط من أعين الناس والإهانة منهم أعظم من كل كرب

---

(١) «الطب الروحاني» (ص ٥٥-٥٦).

وشدة، وما يناله أرباب التعب من الراحة في تعظيم الخلق لهم وارتفاع قدرهم في الدنيا والآخرة يُنسي مرارة كل نصَب، فكأنه ما تعب من استراح ولا استراح من تعب.

بسنده إلى أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا بْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ.

وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا بْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»[1].

وبيان هذا أن التعب ينقضي وتبقى الراحة، والراحة تذهب وتبقى الحسرة، والمقام موسم، والفوات معترض، والاستلاب عاجل، وفي بعض هذا إزعاج للمتواني».

وفي «اللطف في الوعظ»[2]: «الحِذار الحِذار، ﴿**أن تقول نفس يا حسرتا**﴾. الحازم يتزود لما به، قبل أن يصير لمآبه. شجرة الحزم أصلها إحكام النظر، وفروعها المشاورة في الـمُشكل، وثمرها انتهاز الفرص، وكفى بذهاب الفرص ندمًا، وكم فرصة فاتت فأصبح ربها يَعَضّ عليها الكف أو يقرع السِّنّ! وا عجبا لمضيع العمر في التواني! فإذا جاء متقاضي الروح قال: ﴿**إني**

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٧) وغيره، ومن «صحيحه» نقلت لفظه.

(٢) (ص ٢١).

تبت الآن﴾، ﴿وأنى لهم التناوش من مكان بعيد﴾».

وفي «صيد الخاطر»: «وأهم الكل أن يحترز بأخذ العدة وتحقيق التوبة قبل أن يهجم ما لا يؤمن هجومه، وليحذر من لص الكسل، فإنه محتال على سرقة الزمان».

وفي «لطائف المعارف»[1]: «غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يُفَرِّطون في حياتهم، فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعًا، ومنهم من يقطعها في المعاصي.

قال بعض السلف: أصبحتم في أمنية ناس كثير».

قال ابن رجب: يعني أن الموتى كلهم يتمنون حياة ساعة ليتوبوا فيها ويجتهدوا في الطاعة، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

لـو قيـل لقـومٍ مـا منـاكمُ طلبـوا ... حيـــاةَ يـــومٍ ليتوبـــوا فـــاعلمِ
ويحـــكِ يـــا نفـــسُ ألا تـــيقظٌ ... ينفـــع قبـــل أن تَـــزِلَّ قـــدمي
مضىـ الزمـانُ في تـوانٍ وهـوًى ... فاسـتدركي مـا قـد بقـي واغتنمـي

التعاون

وأخيرًا، فإن بعض ما يسعى المرء في تحصيله من الخير لا يقدر عليه حقيقة، ويعجز عن القيام به وحده، لا لتكاسله ولا لضعفه، ولكن لأن الأمر من المشقة بحيث لا يقدر عليه وحده، ففي مثل هذه الحال ينبغي له أن يتعاون

(١) (ص ٣٥٥).

مع أهل القدرة والخبرة على القيام به وأدائه، وبخاصة في الأمور العامة التي يحتاج إليها المجتمع في أمور دينه ومصالح دنياه، فالمجتمع القوي الصالح لا يعرف الكسل، ولا يعتذر بالعجز، ولا يدع لأعدائه عليه سلطانًا.

وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ** ﴾[المائدة: ٢].

وقال سبحانه: ﴿ **وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وبالله التوفيق.

* * * * *

خاتمة

وبعد ـ أخي القارئ، فبادر ما دام في العمر فسحة، وفي الحياة بقية، وتدبر قول الله عز وجل:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

واغتنم ما أنت فيه من القوة والنشاط والصحة والفراغ، وإياك إياك أن تضيع زمانك فيما لا يعود عليك بالمنافع والأرباح، فإن فعلت فإنك إذًا من الذين جَنَوُا الآلام والهموم والحسرات، وقد قال النبي ﷺ:

«اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمْكَ، وَصِحَتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[١].

وقال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالْفَرَاغُ»[٢].

قال ابن الجوزي[٣]: قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٠٦)، والبيهقي في «الشعب»، وغيرهما، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وكذا الألباني في «تخريج اقتضاء العلم العمل» (ص ١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٢) وغيره.

(٣) نقلًا عن «فتح الباري» (١١/ ٢٣٠).

الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم! كما قيل:

يَسُرُّ الفتى طولُ السلامة والبَقا فكيف ترى طول السلامة يَفعلُ
يَرُدُّ الفتى بعد اعتدالٍ وصحةٍ يَنُوء إذا رام القيام ويُحْمَلُ

وقال ابن مفلح[(١)]: «اعلم أن الزمان أشرف من أن يُضَيَّع منه لحظة، فكم يُضَيِّع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل، وهذه الأيام مثل المزرعة، وكأنه قد قيل للإنسان: كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألفًا، هل تُرى يجوز للعاقل أن يتوقف عن البذر أو يتوانى؟!».

وقال ابن الجوزي[(٢)]: «كل نَفَس من أنفاسك جوهرة يمكن أن تشتري بها خلود الأبد. ويحك! انتبه، أقل ما يلحق المتواني فوات المواسم».

وقال[(٣)]: «إذا قمتم من المجلس فادخلوا دار الخلوة ساعة، وشاوروا نصيح الفكر، وحاسبوا شريك الخيانة، وتلمحوا تفريط الكسل في بضاعة العمر، وتأسفوا على كل ذنب كان أو حظ من الله فات. البِدار البِدار نحو البقية، فيكفي المفرط ما ضاع، وليحذر الأعور الحجر».

---

(١) «الآداب الشرعية» (٣/ ٤٨٤).

(٢) «صبا نجد» (ص ٢٧).

(٣) «اللطف في الوعظ» (ص ٧٩).

وقال لابنه وهو يعظه[1]: «فانتبه يا بني لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سعة، واسق غصنك ما دامت فيه رطوبة، واذكر ساعتك التي ضاعت فكفى بها عظة، ذهبت لذة الكسل فيها، وفاتت مراتب الفضائل.

وقد كان السلف الصالح رحمهم الله يحبون جَمْعَ كلِّ فضيلة، ويبكون على فوات واحدة منها.

قال إبراهيم بن أدهم: دخلنا على عابد مريض وهو ينظر إلى رجليه ويبكي، فقلنا: مالك تبكي؟ فقال: ما اغبرتا في سبيل الله.

وبكى آخر، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: على يوم مضى ما صمته، وعلى ليلة ذهبت ما قمتها.

وفي الحديث: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّـهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»[2]، فانظر إلى مضيِّع الساعات كم يفوته من النخيل!

ولا يؤيسك يا بني من الخير ما مضى من التفريط، فإنه قد انتبه خلق كثير بعد الرقاد الطويل، فقد حدثني الشيخ أبو حكيم عن قاضي القضاة الشيخ أبي الحسن الدامغاني رحمه الله قال: كنت في صبوتي متشاغلًا بالبطالة غير ملتفت إلى العلم، فأحضرني أبي ـ أبو عبد الله رحمه الله تعالى ـ وقال لي: يا بني، لست أبقى لك أبدًا، فخذ عشرين دينارًا وافتح لك دكان خباز وتكسّب، فقلت له:

---

(١) انظر «لفتة الكبد» (ص ٣٤-٤٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٦٥) وغيره، وصححه الألباني.

ما هذا الكلام؟ قال: فافتح دكان بزاز، فقلت: كيف تقول لي هذا وأنا ابن قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني؟ قال: فما أراك تطلب العلم! فقلت: اذكر لي الدرس الساعة، فذكر لي، فأقبلت على الاشتغال بالعلم واجتهدتُ، ففتح الله تعالى عليّ.

وحكى لي بعض أصحاب أبي محمد الحلواني رحمه الله قال: مات أبي وأنا ابن إحدى وعشرين سنة، وكنت موصوفًا بالبطالة، فأتيت أتقاضى بعض سكان دار قد ورثتها، فسمعتهم يقولون: جاء المُدَبَّر (أي: الرَّبيط)، فقلت لنفسي: يقال عني هذا! فجئت إلى والدتي فقلت: إذا أردت طلبي فاطلبيني من مسجد الشيخ أبي الخطاب، ولازمته فما خرجت إلا إلى القضاء، فصرت قاضيًا مدة».

قال ابن الجوزي: «قلت: ورأيته أنا وهو يفتي ويناظر». اهـ.

ولابن الوردي:

كُتِبَ الموتُ على الخلق فكَمْ ... فَلَّ من جَمْعٍ وأفنى من دُوَلْ
أين نُمرودُ وكَنعانُ ومَنْ ... ملك الأمر وولَّى وعَزَلْ
أين عادٌ أين فرعونُ ومَنْ ... رفع الأهرام من يسمع يَخَلْ
أين من سادوا وشادوا وبَنَوْا ... هلك الكل ولم تغنِ القُلَلْ
أين أربابُ الحِجى أهلُ النُّهى ... أين أهل العلم والقوم الأُوَلْ
سيعيد اللَّهُ كلًّا منهمُ ... وسيجزي فاعلًا ما قد فَعَلْ
يا بُنَيَّ اسمع وصايا جَمَعَتْ ... حِكَمًا خُصَّتْ بها خيرُ المِلَلْ
اطلبِ العلمَ ولا تكسلْ فما ... أبعدَ الخير على أهل الكَسَلْ

واهجـرِ النـومَ وحَصِّـلْهُ فمَـنْ ... يَعـرفِ المطلـوبَ يَحقِـرْ مـا بَـذَلْ
لا تقـل قـد ذهبـتْ أربابـهُ ... كـلُّ مـن سـار عـلى الـدرب وَصَـلْ
في ازديـاد العلـم إرغـامُ العِـدا ... وجمـالُ العلـمِ إصـلاحُ العَمَـلْ

ولأبي العتاهية:

مـا بـالُ نفسِـك بالآمـال مُنخدعـةْ ... ومـا لهـا لا تُـرَى بـالوعظ منتفعـةْ
أما سَمِعْتَ بمن أضحى لـه سَبَبٌ ... إلى النجـاة بحـرفٍ واحـدٍ سَـمِعَهْ

ولعبد الله الفاسي:

شـمِّر بُنـيَّ لنيـل العلـم مبتـدرًا ... خوفَ الشماتة لا تصبو إلى الكسلِ

وللمعولي العماني:

شـمِّر الـذيلَ وبـادر للعمـلْ ... والـزمِ التقـوى ودعْ عنـك الكسـلْ

ولحمدون بن الحاج السلمي:

وإذا مـا شـئت أن تخطُـب في ... مِنـبر المجـد وتعلُـوَ وتُـجَلْ
شَـمِّرِ السـاقين وانهـض قـائمًا ... بِقُـوَى العـزم ودع عنـك الكسـلْ

ولعبد العزيز العلجي:

أَفِتيـانَ قَـومِي وجِّهُـوا الهَـمَّ كُلَّـهُ ... إلى العلـمِ مَعمُولًا به وذَرُوا الكسلْ
فـما العِـزُّ في الـدارين إلا مدينـةٌ ... مُـشَيَّدَةُ الأركـانِ بـالعلم والعَمَـلْ

سائلًا الله عز وجل لي ولك ـ أخي القارئ ـ التوفيق والسداد، وأن يجعلنا

وإياكم من أهل النشاط والهمة العالية، وأن يعيذنا من العجز والكسل، ومن موجبات ذلك من التواني والتفريط في مصالح أنفسنا ومصالح أمتنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وكتب

محمد شومان

الفهرس

الفهرس

هذا الكتاب

بحث شامل متكامل في ذم الكسل والحث على الجد في العلم والعمل، سواء كان ذلك في الأمور الدينية أو الدنيوية، وعلى مستوى الأفراد والمجتمعات، وهو يخاطب بالكلمة النافعة، والموعظة الحسنة، والحكمة البالغة، جميع فئات الناس؛ من طالب ومعلم، وموظف ومسؤول، ورجل وامرأة، وصغير وكبير، وسائر العقلاء، بأسلوب سهل جذاب، وطريقة خاصة مبتكرة، والله الموفق.